علّم نفسك

٦

الحضارة الأوروبية

في القرون الوسطى وعصر النهضة

تأليف فرديناند شيفل

أستاذ التاريخ الحديث في جامعة شيكاغو

دار العلم للملايين

بيروت

١٩٥٢

علّم نفسك

سلسلة كتب مبسطة لنشر الثقافة العامة

اختار موضوعاتها ونقلها إلى العربية

منير البعلبكي

الطبعة الأولى

بيروت ، حزيران ١٩٥٢

١ . المذهب الجديد في كتابة التاريخ

من واجب المؤرخ المعاصر ، قبل كل شيء ، ان يشرح لقرائه مفهومه من التاريخ ، لأن لفظة التاريخ انتهت الى ان تصبح مرنةً ذات حدودٍ لا متناهية . وليس من المبالغة في شيء ان نقول إن هناك اليوم من « تعريفات » التاريخ بقَدْر ما عندنا من المؤرخين ، وإنّ كلّ مؤرخ ينزع الى ان يكتب التاريخ على طريقته الخاصة .

المذهب التقليدي في التاريخ يعنى بالسياسة

وهذا الاتساع في أفق التاريخ إنمـــا يرجع الى وقت قريبٍ نسبياً . ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر كان المؤرخ الانكليزي ادورد فريمان Edward Freeman ما يزال قادراً على ان يُعلن ، في اطمئنانٍ جازم ، ان « التاريخ هو السياسة الماضية » . ولم يكتف فريمان بالكلام الموضوعي الهادىء ، فحملَ على خصومـه جميعاً وناضلَ في حرارة دفاعاً عن التعريف الذي اصطنع ، على اعتبار أنه وحدهُ الذي يتفق والتقليدَ الشريف لصناعة التاريخ ، وعلى

اعتبار ان التخلي عنه ينتهي بها الى الاضطراب والفوضى والحق ان الوقائع كانت تؤيد ما قال به إلى حدٍ لا يقبل الخلاف ، بحيث ان احداً لم يقم في وهمه ان يُنكر ان أسلاف فريمان الأوروبيين الذين يرقون الى عصر النهضة قد ارتضوا التاريخ بحثاً يُعنى ، في جوهره ، بالسياسة . ليس هذا فحسب ، بل ان المؤرخين الاقدمين ، من هيرودوتس الى طاسيتوس Tacitus ، وهم الذين نظر اليهم الكتاب المُحْدَثون نظرتهم الى انصاف آلهة واتخذوا منهم أئمةً يقلدونهم ويقتفون آثارهم ، سلكوا السبيل نفسه والخطة عينها . لقد كان من المسلّم به ان التقليد القـــديم يقضي بتفسير التاريخ تفسيراً سياسياً محضاً ، وان كل تنكّب لهذه الطريق يُعتبر خروجاً على سلطان آلهة التاريخ وإزراءً بالتقاليد والمقدسات .

الحركة العصرية تحطم حواجز المذهب التقليدي

ومع ذلك فقـد عجز فريمـان وعجزت جمهرة المؤرخين الراقين الى عهد هيرودوتس نفسه ، ابي التاريخ ، عن ان يقفوا الحركة التي قُـدّر لها ان تحطم الحواجز العتيقة . والواقع ان هذه الحركة ظلت تعمل في هدوء وعلى استحياء، شأن جميع القوى الثورية ، بضعةَ اجيالٍ قبل ان ينتبـــه الناس الى وجودها . وليس من ريب في انها انبثقت ، في المحلّ الاول ، عن المؤثرات العلمية التي خلقت علمي الطبيعة والفلك الحديثين ، وحملت على ظهور الفلسفات النقدية الحديثة

والمذهب الطبيعي الجديد في الفن والادب . فمنذ القرن الثامن عشر بخاصة اخذت الوان النشاط الانساني المختلفة تحظى ، الى جانب المؤسسات السياسية ، بشيء من اهتمام الباحثين وعنايتهم . حتى اذا انتصف القرن التاسع عشر اصبحت هذه المادة الجديدة ، التي تمثل جهاد الانسانية الطويل المتعدد الجنبات في سبيل التمكين لنفسها في هذه الارض ، غزيرةً الى درجة يتعذر على المؤرخين تجاهلها . صحيحٌ ان مفهوم التاريخ التقليدي كان من القوة بحيث اصرّ جماعة من المحافظين على ان المسائل السياسية هي وحدها التي تتصل بعمل المؤرخ؛ وان على علماء الاقتصاد والاجتماع وغيرهم من اهل الاختصاص الجُدُد ان يعالجوا،من دون المؤرخين اصحاب الصناعة الشريفة ، هذه المعارف المستحدثة ويعرضوا لها . ولكن حماة المذهب القديم اخذوا في التناقص عقداً بعد عقد ، الى ان قام فريمان بنضاله المأثور الذي سبقت اليه الاشارة . ومع ان هذا النضال ارتدى طابع الهجوم فقد اعتُبر — على ضوء التطور الذي تمّ في القرن التاسع عشر — السهم الاخير في حرب خاضها اصحابها في ظل هذا الشعار العاطفي الاخرق الذي يقول : « ان الحامية العتيقة قد تموت ولكنها لا تلقي السلاح ! »

القرن العشرون يشهد فجر المذهب الجديد في التاريخ

ومع فجر القرن العشرين كان المذهب الجديد في التاريخ

قد انتصر انتصاراً تاماً . فكانت النتيجة المباشرة ، من غير شك ، ذلك الاضطراب الذي تنبأ به في كثير من الثقة ، فريمان وأضرابه . وفي غمرة من الأقرار الصادق ، كثيراً او قليلاً ، بأن صفحات التاريخ ليست وقفا على الاحداث السياسية اتخذ كل مؤرخ لنفسه وجهةً املاها عليه موقفه الخاص من عالم اليوم . فبينما ظلت الدولة موضع عناية التاريخ الرئيسية نزع بعض المؤرخين الى الأفادة من مادة البحث الجغرافي ، وآثر بعضهم المادة الاقتصادية ، في حين أصاخ آخرون الى الاصوات المنبعثة من دنيا الأدب والفنون . وعلى الرغم من أن كل وجه من وجوه النشاط الانساني والمؤثرات فيه قد أصبح – وسط هذه الثورة المفاجئة على القيود القديمة – موضوعاً من موضوعات البحث التاريخي من الناحية النظرية ، فالواقع أن كل مؤرخ بسط سلطانه على اكبر عددٍ من الميادين استطاع الوصول اليها ، ليُخرج للناس ، تحت اسم التاريخ ، نتاجاً شخصياً الى حدٍّ بعيد . ولا نستطيع ان نتصور علاجاً لهذه الفوضى المؤسفة غير الاتفاق على عناصر « التاريخ الجديد » الحقيقية ، وعلى قيمة كل عنصر بالنسبة الى العناصر الأخرى ، ثم على طريقة تعليلها وأصوله . ولكن علينا قبل مجرد الشروع في مثل هذا الاتفاق أن ننسق مختلف النتائج التي انتهى اليها علماء الجغرافية والاقتصاد والاجتماع والأثنولوجيا وأن نجعلها في متناول الطالبين . حتى اذا تم

لنا ذلك وأتبعناه بألقاء فرضٍ Hypothesis جديد نهذبه ابداً من طريق المراجعة على ضوء الحقائق ، خلصنا الى وضع الصيغة التي تمكن « التاريخ الجديد » من ان يحقق شروط العمل التأليفي أو التركيبي synthesis المطابق لمقتضيات الفكر الحديث .

« التاريخ التركيبي » غير الناضج ومحاولة هـ . ج . ويلز

ومثل هذا البرنامج الواسع العريض يقتضي تعاون رجال عديدين ؛ وقد لا ينجح هذا التعاون في رسم صورة جديدة ، ومُرضية ، للعالم إلا بعد عملٍ دائبٍ تقوم به اجيالٌ عديدة . أما اذا أبى مؤرخ قليل الاصطبار ان ينتظر اكثر مما فعل ، فاسرع الى اصدار « التاريخ التركيبي » الذي يقتضيه الاستشراف outlook التاريخي الجديد فأن نواحي ضعفه خليقة بأن تُقيم الدليل على ان محاولته فجةٌ سابقة لأوانها ، وإن لم يخفق في ان يكون رائداً نافعاً في هذا المضمار ، شريطة ان يُخضع عمله لنقدٍ ذاتي امين . وعلى هذا الضوء نستطيع ان ننظر الى بعض المحاولات التركيبية الحديثة وبخاصة محاولة هـ . ج . ويلز في كتابه « **مختصر التاريخ** » *Outline of History* فعلى الرغم من كثرة المآخذ على هذا الكتاب ، سواء من حيث إهماله لاشياء بعينها أو عنايته باشياء بعينها ، فقد أدّى خدمةً جليلة بتركيزه التفات المؤرخين والجمهور جميعاً نحو محاسن النظر الى العالم كوحدة

على ما تقتضيه مقاييس العلم واتساع افق المعرفة الحديثة . ونحن إذا أغفلنا مواطن الضعف في كتاب ويلز ، خليقون بأن نثق – استناداً الى ما حققه من نجاح كبير – بأن السنّة التي وضعها سوف تُتبع ليخرج الى النور تاريخٌ يُعبر تعبيراً أوفى وأتم عن معارفنا الحاضرة واستشرافنا الجديد للاشياء . إن كل تقدم سوف يقود الى تقدم غيره ، كما تتبع الخطوةَ الخطوةَ ، حتى نبلغ أعلى السلم التي تنتهي بنا الى اهدافنا .

« التاريخ الجديد » سيكون تاريخاً للحضارة

ومع اعترافنا بان « التاريخ الجديد » ما يزال في حال مائعة ، نستطيع أن نؤكد ، في ثقة واطمئنان ، انه سوف يأخذ نفسه بالعناية المتزايدة ، شيئاً بعد شيء ، بمشكلات النشاط الانساني على هذه الارض . وكاتب هذه السطور ليميل الى الاعتقاد بأن التاريخ الجديد سيكون تاريخاً للحضارة ولكنه لا يستغرق الناسَ جميعاً منذ بدء الزمان ، بصرف النظر عن المناخ ، والقارة ، واللون ، لان تاريخ الحضارة لم يكن في الواقع وحدةً متماسكة . ومن هنا يبدو له ان التاريخ الجديد سيكون سلسلةً كاملة من تواريخ الحضارة التي ازدهرت في عالم متعددٍ متخاصمٍ ظهرت فيه الشعوب ثم زالت بعد أن اقامت حضاراتٍ شخصية الى درجة لا نستطيع معها إلا ان نعتبر كلا منها تمدناً فريداً . وهكذا

بنى الشعب الصيني ، خلال القرون ، حضارةً لا خلاف في انها قائمة بنفسها . وكذلك فعل الشعب الهندي . وايّ خدمة يمكن ان تُسديها إلينا دراسة هاتين الحضارتين المتميزتين غير فهمهما لذاتهما ، ووصفهما تعبيرين شخصيين الى حد بعيد عن سعي الصينيين والهنود الى ان يلائموا بين ذواتهم وبين الحالات الخصوصية التي أحاطت بهم في دنياهم العريضة . وهنالك ، على هذا الغرار ، أو كان هنـــالك ، حضارات فارسية ، وعربية ، ويونانية ورومانية وكثيرات غيرها . ومع تسليمنا بضرورة الاهتمام بهذه الحضارات جميعا فان في استطاعتنا ان نؤكد ان غايتنا العظمى ، نحن الذين نحيا اليوم في اوروبة والولايات المتحدة ، تستهدف الحضارة الاوروبية او الغربية التي نؤلف عنصراً من عناصرها لا يتجزأ ، عنصراً قويـــاً مناضلا الى حد بعيد .

هذا الكتاب * مدرسي يعنى بالحضارة الاوروبية

ولنكتف بهذا القـــدر من الكلام على « التاريخ الجديد » وتَبَلْوُرِهِ النهائي في تاريخ للحضارة او سلسلة تواريخ للحضارة . وليس من شك في ان الوقت قد حان لاخراج مثل

* يتكلم المؤلف هنا عن كتابه الضخم الذي نقلنا عنه هـذه الفصول واسمه : « تاريخ اوروبة من عصر الاصلاح الى الوقت الحاضر » *History of Europe from the Reformation to the Present Day* .
ونحن نرجو ان نفرغ لترجمة هذا الكتاب كله في وقت قريب ان شاء الله .
[المعرب]

هذه المؤلفات ، بيد انه لمّا كانت هذه المؤلفات ستظلّ تحمل ، الى وقت طويل ، طابع المحاولة فان كتاباً كهذا الكتاب – يعترف بأنه موضوع للمبتدئين – غيرُ مؤهل للقيام بمثل هذه المهمة الرائدة . ذلك بان الكتاب المدرسي ليس منبراً مناسباً لتلك المناقشات النظرية بين المتخصصين ، وهي التي يجب ان تنتهي ، كما اشير سابقاً ، الى درجةٍ ما من التقرير قبل ان يكون في مقدور التاريخ الجديد ان يتبلور في شكلٍ من الاشكال . وإذ كان الكتاب المدرسي لا يتسع ، بطبيعته ، للجدل والنقاش ولا يستطيع أن يتخذ موقفاً متقدماً تُثار فيه مختلف المشكلات فان اقصى ما يطمح فيه ان يجمع بين دفتيه طائفة من النتائج المقررة تقريراً يختلف قوةً وضعفاً . انه عمليٌ في اقتناعه بان الحقائق ذاتها يجب ان تتقدم على ايما مجهود يُبذل لتعليلها . من اجل ذلك لم يكن هذا المؤلف تاريخاً للحضارة الاوروبية ولكنه مُدخِلٌ لمثل ذلك التاريخ ، وهو يرجو ان ينظر اليه الناس هذا النوع من النظر . ونظرة سريعة الى نهج الكتاب والموضوعات التي يعنى بها تكفي لتوضيح ذلك . انه يوجه اهتمامه من اول الطريق الى آخرها نحو اوروبة الغربية كلها ونحو الرجل الاوروبي في مختلف احواله ، ويقر بوجود حركة تطورية متصلة استغرقت عدة ادوار منذ ذلك التماثل البدائي الذي تتصف به بربرية القرن السادس ، حتى هذا الحصب وهذا التنوع المدهشين اللذين يميزان القرن

العشرين . إنه يعنى بالطبقات الاجتماعية والنظم السياسية التي عرفتها الدول الاوروبية في نشوئها وتطورها ، ويُدخل في حسابه الحركات الاقتصادية والفكرية الحديثة ، مسجلاً تطور الآداب والفنون . من اجل ذلك كله كان هذا الكتاب ، في جوهره ، تاريخاً للحضارة الاوروبية . بيد انه لما كان غير مبنيٍّ على اساسٍ من بحثٍ نظريٍّ سابـــقٍ يُعنى بتقرير العلاقة بين العناصر المؤلفة للحضارة بعضها ببعض آثر المؤلف ان يدعوه ، في تواضعٍ ، مجرد تاريخ لأوروبة وان يزيد في التخصيص فينصّ على انه تاريخ لاوروبة منذ الاصلاح الديني حتى يومنا هذا .

٢ . حضارة اوروبة في العصر الوسيط

إذا افتتحنا تاريخنا هذا بالكلام على عصر الاصـــلاح الديني Reformation كان اول ما يؤخذ علينا التحكم الاعتباطي في اختيار نقطة الابتداء . وليس من شك في ان الالقاء بالقارىء ، من غير ما انذار ، في خضم مضطرب من الاحداث الانسانية يقتضينا ، على الاقل ، بعض الشروح التي تساعده على ان يكتشف المكان الذي هو فيه . ولما كنا لن نتكلف في سبيل ذلك ، مسايرة الحياة الانسانية حتى منابعها البعيدة لنكتفي بلمحةٍ نلقيها على الجانب الذي يقودنا مباشرةً الى عصر الاصلاح فأنا نجد من الحكمة بل من الضرورة ان نعود القهقرى الى ذلك المفترق الذي سقطت عنده الامبراطورية الرومانية ، والذي اغارت فيه القبائل الجرمانية والسلافيـة على اراضيها . هنا من غير شك يقوم مَعْلَمٌ شاهق ؛ ومن هنا بلا خلاف بـــدأ التاريخ الاوروبي كشيء متميز عن التاريخ القديم او تاريخ البحر الابيض المتوسط . ان الفاً من السنين لتفصل مـا بين سقوط الامبراطورية الرومانيـة وعصر الاصلاح ، وهي مدةٌ حافلةٌ باحداث خطيرة غيرت

وجه اوروبة الغربية ومهرتها بحضارة جديدة .

تحديد العصر الوسيط وعصر النهضة زمانياً

ولا غنية عن الكلام ، مهما كان موجزاً ، على هذه الالف السنة ليتمكن القاريء من فهم الحال التي ستواجهه في عصر الأصلاح . واذا كان من غير النادر اعتبار عشرة القرون الممتدة من سنة ٥٠٠ ب. م الى سنة ١٥٠٠ ب. م حقبةً واحدة تدعى القرون الوسطى فأن من الاصوب ، في الجملة ، أن تُقسَم هذه الحقبة الى قسمين غير متساويين فندعو الاول منهما ، ويمتد من سنة ٥٠٠ الى ١٣٠٠ ب. م العصر الوسيط ونحلي جيد القسم الثاني الممتد من سنة ١٣٠٠ ب. م حتى الاصلاح الديني باسم النهضة أو الرونيسانس Renaissance وليس ثمة في ما يبدو لي كبيرُ فرقٍ بين أن ننظر الى النهضة كحقبةٍ مستقلة ، أو كطورٍ مضمحلٍّ أخيرٍ من أطوار العصر الوسيط ، بل حتى كفجرٍ لحقبةٍ جديدة هي العصر الحديث . والواقع أن الشيء الوحيد الذي ينبغي ان يهمّنا حقاً ، في ما يتصل بتقسيمات التاريخ الزمانية ، هو مقدار ما تؤديه هذه التقسيمات من خدمة أو نفعٍ . ولا خلاف في ان تمييزنا بين العصر الوسيط وعصر النهضة مفيدٌ جداً . فالحقّ اننا كلما درسنا هاتين الحقبتين درساً أعمق تبيّن لنا أن كلاً منهما تمتعّ بخصائص تميزها من الأخرى . وفي ميسورنا ان نوجز

ههنا الفروق البارزة بين هاتين الحقبتين – وسنفصّل الكلام عليها في ما بعد – فنقول إن الحقبة الوسيطة تمتعت بوحدة روحية فريدة ترجع الى ان سلطان الدين وسلطان الكنيسة كانا فيها مُطلقَين غيرَ منازَعَين ؛ في حين أن عصر النهضة فَجّرَ فيضاً من الأعمال والفكرات الجديدة خليقاً بأن يبدّد ، آخر الأمر ، الجوّ الديني الذي غَذَاهُ العصر الوسيط وشجعه . وبذلك البطء الذي يميز الحركات الانسانية ، وفي غير ما نجوةٍ من العوائق القاسية ، اتخذ الانسان في ذلك العصر البادىء حوالى سنة ١٣٠٠ ب.م موقفاً من الحياة جديداً . ومن اجل ذلك كانت النهضة بمثابة ولادة جديدة ، أو بمثابة طورٍ جديد من اطوار الأنسانية في اوروبة الغربية على الأقلّ .

وفي هذا الفصل سنحاول ان نحدثك عن العصر الوسيط حديثاً موجزاً جداً ، في حين سنعرض في الفصل التالي ، بشيء من الاسهاب ، لخصائص عصر النهضة او الرونيسانس .

في العصر الوسيط نشأت الشعوب الاوروبية الكبرى

وليس بين الظواهر الحاسمة في القرون الوسطى ما هو اقوى وأبرز من نشوء الشعوب الاوروبية الكبرى – الايطاليون والفرنسيون والاسبان والانكليز والجرمان – متمتعةً بخصائص قومية معيّنة ، ومرتبطةً ببقاع جغرافية

خاصة اصبحت منذ ذلك الحين ، ومن غير ما انقطاع ، أوطاناً لها . والواقع ان كل شعب من هذه الشعوب اصطدمَ بضروبٍ من المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية تشبه الى حدٍ بعيد تلك التي اصطدم بها سائرها . وليس من ريب في ان هذه المشكلات هي التي تقرّر طابع العصر الوسيط وتكشف لنا عن مزاجه الخاصّ . وخير وسيلة لفهم ذلك المزاج أن نركّز اهتمامنا على العوامل الثلاثة البارزة في ذلك المجتمع ، أعني **نظام الأقطاع ، والمدن ، والكنيسة** . فالحقّ أن هذه جميعاً ، والكنيسة بخاصةٍ ، خلعت على ذلك العصر طابعاً خاصاً وصفةً مميّزة .

« أ » – نظام الاقطاع

نظام الاقطاع مجموعة من المؤسسات البدائية

إذا اتفقنا على أن العصر الوسيط بدأ في ختام القرن الخامس بتلك الفوضى المخيفة التي نجمت عن سقوط الامبراطورية الرومانية وغارة القبائل الجرمانية في آنٍ معاً ، وإذا ادركنا بعدُ ان اوروبة رفعت نفسها ، خلال القرون السبعة أو الثمانية التالية ، الى نظامٍ يمتاز باستقرار نسبي ويمثل الاطوار الأولى لحضارةٍ جديدة زاهية ، اذا فعلنا ذلك استطعنا ان نتخلص من نزعة شائعة عند المفكرين السطحيين من غير

ما مبرر ، هي النظر الى هـــذه الحقبة نظرة الازدراء والاستخفاف . والواقع أن هذا النظام كان بعيـــداً عن النضج ، كما لا نحتاج الى ان نؤكد ، ومن هنا جاءت مشكلات اوروبة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، في العصر الوسيط ، وعليها كلها طابعٌ بدائي ساذج . والذي نراه ان هذه المشكلات تنضوي ، في جوهرها ، تحت لفظ الاقطاعية . فما هو نظام الاقطاع ؟

لعلّ خير ما نستطيع قوله في نظام الاقطاع إنه مجموع المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي تمثل المحاولة الاولى يقوم بها مجتمعٌ ناشيء طامح للارتفاع بنفسه فوق مستوى بربرية جافية قاسية . وفي ظل النظام الاقطاعي ، نجد المجتمع الاوروبي يعبّر عن نفسه في بساطة ووضوح ، رغم تعدّد الالوان المحلية واختلافها اختلافا كثيراً . هنالك في الاساس طبقتان ليس غـــير : الحاكمون الذي يملكون الارض ، والمحكومون الذين يحرثونها . والارض هـي شكل الثروة الاوحد ، وهي التي تقرر شكل المجتمع . وليس من ريب في ان الحاكمين كانوا مسلحين ، وكان لهم شرفُ الانتساب الى طبقة وراثية من المحاربين ، في حين ان المحكومين ، العُزّل ، كانوا مرتبطين بالارض بوصفهم طبقةً من العبيد المزارعين ، بالوراثة . ولم يكن ثمة حكومات بالمعنى العصري ، تقبض على زمام الادارة النظامية في مساحات واسعة . كان السيد الصغير ، في الواقع ، اميراً في ممتلكاته الخاصة برغم

أنه كان تابعاً ، من ناحية نظرية ، لسيد اكبر منه ومن ثم لمالك . فكان من نتيجة ذلك ان اصبحت اوروبة مؤلفة ، عملياً ، من إمارات تعد بالآلاف ، لا يربط ما بينها غير سبب واه . وكانت الوحدة الاجتماعية الاقتصادية في هذا المجتمع المتأخر هي تلك المزرعة التي تُدعى الاقطاعة manor وكان يتعاون على خدمتها الفلاحون القاطنون مجتمعين في القرية والمحكومون إما مباشرة وإما بالواسطة ، من قبل الأمير النازل في قصره بضواحي القرية .

العصر الوسيط نتيجة لاضمحلال حضارة المدينة القديمة

واذا أمعنا النظر في المادة التي بسطنا ، استطعنا ان نعتبر الصدر الاول من العصر الوسيط ، بالنسبة الى تدفق القبائل الجرمانية والسلافية على اوروبة تدفقاً ظافراً يحمل طابع البداوة او نصف البداوة ، عاملاً قوياً في تمزيق أوصال الأمبراطورية الرومانية . لقد اضمحلّت ثقافة المدينة التي ازدهرت في عصر الرومان ، وانتهت الى كسوف كامل وإن تكن قد شرعت في الانحطاط قبل مجيء البرابرة . أما اقتطاع الأراضي فجرى ، في الجملة ، على هذا المنوال البسيط : استولت طبقة مختارة من المحاربين على ملكية الارض ثم اجازت لسواد السكان العمل عليها لقاء أجرٍ يُقتضَى ، في حال فقدان المال ، خدمات شخصية ومنتجاتٍ طبيعية . ولقد حكم المحاربون رعيّتهم كطبقةٍ نبيلةٍ ممتازة ،

في حين ان الفلاحين الخاضعين للسّادة انحطوا الى حالٍ من العبودية الشرعية جعلتهم في مستوى المتاع أو ارفع قليلا . والكلمة الجامعة التي تصف هـذا الوضع المركّب كله هي « **الاقطاعية** » .

« ب » نهضة المدن

حياة المدينة تعود من جديد حوالى سنة ١٠٠٠ ب م

وما زال هذا النظام البدائي في الاجتماع يطبع وروبة الغربية كلها بطابعـه حتى ظهر حوالى سنة الف بعد الميـلاد عنصرٌ جديد لم يعقّد كيـان المجتمع فحسب ، بل احدث اختماراً عقلياً قـدّر له أن يقوّض الأسس الروحية التي قام عليها العصر الوسيط . ولم يكن هذا العنصر الجديد غـــير نشوء المدن . وإذ نشأت المدن في جوٍ من البعث التجاري والصناعي فقد كانت تمثـل اجتماع رجالٍ عازمين على أن يأخذوا بألوانٍ من النشاط جديدة ، غير زراعية ، وعلى أن يضاعفوا أسباب الراحـة في المعيشة ، ويدافعوا عن أنفسهم ضد زعامة قائمة عـلى الأرض ومعادية بالفطرة للتجار الذين يحرصون أشد الحرص على أن يحرروا أنفسهم من تلك الرقابة السياسية التي تفرضها عليهم طبقة من المحاربين الطغاة .

تقدم المدينة السريع من النواحي المادية والسياسية والثقافية

والواقع أن انتشار المدن ، فوق الرقعـة الاوروبية ،

غيّر الصورة تغييراً كاملاً . فما هي الا فترة حتى وجد أمراء الاقطاع انفسهم ، في قصورهم المتناثرة ، أمام جماعات من أوساط الناس يفوقونهم ثروةً وثقافةً وقوةً عسكرية . وكان لظهور هذه الطبقة آثار عاجلة قضت بتخلف المحاربين الاقدمين عن مكان الزعامة وتنازلهم عن كثير من دعاواهم القديمة وبخسرانهم ، نسبياً ، مكانتهم السياسية والاجتماعية في وجه تقدم السكان المدينيين الذين كانوا ، بدورهم ، متحصنين في قلاع شاهقة ، والذين اكتسبوا ، بالشجاعة والأقدام ، موارد ماديةً كانت تنمو مع الأيام ، واستشرافاً Outlook عقلياً كان يتسع في اطراد .

العنصر الجديد يدفع الحضارة الوسيطة الى أوجها

وبتعدد المدن وتضاعف الوان النشاط التي عاش سكان المدن عليها ، بلغ المجتمع الوسيط في القرنين الثاني عشر والثالث عشر أوْجه . والحق ان كثيراً من اهل زماننا ، وبخاصة بين الفلاسفة ورجال الفن ، ليذهبون الى القول بأن هذا الاوج يمثل توازناً وانسجاماً بين قوى الحياة والفن لم يتحقق في التاريخ الا نادراً . ولكن مهما كان الازدهار الروحي في العصر الوسيط رائعاً فأنه ليس موضع عناية هذا الكتاب . إننا سنجتزيء ههنا بتقرير الحقائق الكبرى عن ازدهار المدن ، وبتصوير الأثر الذي تركته المدينة في التطور الاوروبي من الناحيتين السياسية والثقافية .

المدينة تروج للحكم الذاتي ، ومن ثم للملكية المطلقة

لما وجدت المدينة ان النظام السياسي الاقطاعي القائم يحول بينها وما تبتغي ، وأن عليها أن تقاتل لكي تكفل لنفسها الحياة اصطنعت مبدأ سياسياً خاصاً هو مبدأ الحكم الذاتي . ففي حيثما نشأت المدن ، ظهرت عاجلاً او آجلاً حركة تنزع الى الاستقلال والاكتفاء الذاتي . ومن ضريق العهود أو البراءات المنتزعة من الامراء انتزاعاً ، كسبت المدن أقدم حرياتها ، هذه الحريات التي كانت كل مدينة تعمل على توسيعها بواسطة المنح الأضافية ، كلما امكنتها الفرصة . وقد نجحت بعض المدن آخر الامر ، وبخاصة في ايطالية والمانية ، في أن تصبح جمهوريات حرة منفصلة أو تكاد عن الدولة الاقطاعية التي ظهرت في وسطها ، في حين ان المدن التي ازدهرت في انكلترة وفرنسة ساعدت بصورة شعورية او بصورة لا شعورية على التمكين لسلطان الملك ، لأن السلام الحيوي للتجارة كان مضموناً في ظل الملك اكثر منه في ظل نبلاء هائجين لم تكن الحرب بالنسبة اليهم شيئاً اكثر من التوسع في رياضتهم المفضلة ، أعني القنص والطرد . ولا خلاف في ان المدن تعتبر عند التحقيق العوامل التاريخية الرئيسية في سير الحضارة التدريجي نحو استبدال الدولة الملكية المركزية بالنظام الاقطاعي المفكك الأوصال . وعلى الرغم من أن رجال المدن الاشداء كانوا في صراعهم في سبيل الحياة لا يفكرون إلا في ذواتهم وفي مصالحهم

الخاصة فقد خدموا التطور الانساني باكثر مما احتسبوا بسبب من أنهم كانوا يمثلون قوى اقتصادية قدّر لها آخر الأمر أن تنظم المجتمع تنظيماً سياسياً جديداً بكل ما في الكلمة من معنى. وقد اتخذ هذا التنظيم الجديد، كما سوف نرى، شكل الملكية المطلقة، تلك المؤسسة الشهيرة التي ينبغي ان نحسب، عند التحليل الاخير، اثراً من آثار نمو المدن وازدهارها.

المدينة تمهد السبيل لنظرة دينية وفلسفية جديدة في الحياة

أما من الناحية الثقافية فقد كان للمدن أثر ليس أقل شأناً. ذلك ان اتصالاً وثيقاً قام بين هؤلاء الناس الذين عاشوا معاً ضمن تخوم سور المدينة الضيقة، فتنازعوا على المصالح المتعارضة حيناً، وتعاونوا على وضع الخطط المشتركة حيناً، وشحذوا مواهبهم بحكم ضرورة العمل الدائب لمواجهة الحالات الجديدة. وقد اكتسب بعض اولئك المدينيين، في مهارة التجار وحذقهم، ثروة واختباراً هما نتيجة البحث عن العمل والمغامرة، في المدن المجاورة أو البلدان النائية، في حين عزّز آخرون سيطرتهم على الحياة من طريق التمرس البارع بصناعاتهم الخاصة كنسج القماش، ودبغ الجلود، وضرب الاسلحة. وليس غريباً على هؤلاء، بعد ان عاشوا عيشة تجربة واختبار، وبعد أن نالوا جزاء نشاطهم ممتلكات نامية باطراد، ان ينزعوا الى اطراح قيود التقليد لا في

المسائل التي تمس مصالحهم المادية والسياسية فحسب ، بل في المسائل العقلية والروحية أيضاً . وهل كان شيء غير هذا ممكناً أو جائزاً ؟ إن الناس حين يتعودون استعمال عقولهم ، بحرية ، في السعي المباشر وراء كسب الرزق ، لا بدّ لاجئون الى الوسيلة عينها في الاشواق العليا المتمثلة في الفلسفة والدين ؛ والفلسفة والدين إنما يمثلان أبداً وفي كل مكان محاولةً الى الى صوغ تعبيرٍ نظري عن التجارب التي تتم للانسان في طوافه الدنيوي . ويلزم عن ذلك أنه اذا استطاع مجتمعٌ زراعي بدائي ، كالذي سبق ازدهار المدن ، أن ينشيء ديناً وفلسفة يعبران تعبيراً ملائماً عن اهدافه وآماله ، فان مجتمعاً تجارياً متحركاً كالذي احدثته نهضة المدن خليقٌ بأن يغدو متسائلاً كثير الانتقاد للتراث الذي انتهى اليه ، وان يفرغ لصوغ فكرات ونظريات جديدة خاصة به .

العصر الوسيط محاولة لاقامة مجتمع مسيحي تسيطر عليه كنيسة مطلقة

ومهما يكن من أمر فأن علينا قبل ان ننظر في الثقافة التي شجعتها المدن أن نلمّ بعض الالمام بالثقافة القديمة التي كانت تهيمن على تلك المدن يوم ولادتها والتي نشط المدينيون بعدُ لمناهضتها . والواقع ان ثقافة العصر الوسيط كامنةٌ في الدين والفلسفة اللذين كانا سائدين في ذلك العصر ؛ وفي ميسورنا ان نختصرها بكلمة واحدة : **النصرانية** . وفي سبيل تحقيق سيادة النصرانية المطلقة نشأت منذ العصور

الرومانية مؤسسة ذات سطة عليا في الكنيسة المسيحية الكاثوليكية . وفيما يجب ان يُنظر الى **الدين** النصراني المؤلف من مجموعة من العقائد الراسخة الوطيدة بوصفه الجوهر الروحي للعصر الوسيط ، فان **الكنيسة** يمكن ان تُعتبر مؤسسة غرضها بثّ القيم الروحية الخاصة بالنصرانية ، وتوكيدها توكيداً يضمن لها الغلبة والفوز . إن هذه المؤسسة هي حجر الزاوية في بنيان الحضارة الوسيطة ، ومن هنا كان درسها ضرورياً جداً لفهم اوروبة في العصور الوسطى .

« ج » الكنيسة

نشوء النصرانية والكنيسة

إن اصل المسيحية يمكن ان يُلتمس في موقف عطفيّ جديد وقفته شعوب العالم اليوناني الروماني من مسائل الحياة والموت الكبرى . فاليائسون المتعبون من واقعات الحياة المحزنة في هذه الدنيا ، المتزايد عددهم باطّراد ، طفقوا يبحثون عن النعيم في حياة تُرتجى بعد الموت . واخيراً ، وبإيحاء من يسوع الناصري المسمى مخلّصاً ومسيحاً ، وتوجيهٍ من جماعةٍ من تلامذته المخلصين ، تكوّنت مجموعة من المعتقدات تعلّم ان الحياة وادٍ للدموع ، وتَعِدُ بأن تعوّض الناس من مختلف الآلام البشرية راحةً اخيرة من طريق الاتحاد بالاله الواحد الذي ليس غيره ، أبينا السماويّ . وقد احرز الدين الجديد ، الذي وُسِمَ بالمسيحية ، نصراً بارعاً في اكتساب

المؤمنين الذين ما لبثوا ان احسّوا – وهم المتناثرون في بقاع البحر المتوسط العريضة وسط كثرة وثنية معادية – ضرورة الارتباط الوثيق الذي يشدّهم كمثل البنيان المرصوص. ومن هنا انبثقت الكنيسة المسيحية التي نَمَتْ في مطلع القرن الرابع قويةً شديدةً – رغم ما كانت تتلقاه من الاضطهاد الدوري من الوثنية السائدة – بحيث استطاعت ان تُقْنِعَ الحاكم الجديد، الامبراطور قسطنطين الكبير، بحقها في حماية القانون. (براءة ميلان سنة ٣١٣ ب. م.) حتى اذا اصبحت وطيدة الدعائم لا تقاوم أخذت نفسها بالقضاء على جميع المعتقدات والمنظمات الدينية المعادية لتستوي، خلال الأجيال القليلة التي عقبت الاعتراف بها، على عرشها، في العالم الروماني كله.

تنصر البرابرة وتأسيس كنيستين مسيحيتين

وعندما اكتسح برابرة الشمال، السلاف والجرمان، الامبراطورية الرومانية عملت الكنيسة على اجتذابهم اليها، فتمكنت بمجهودات تبشيرية استغرقت عدة قرون واتسمت بطابع البطولة، من ان تحقق غايتها باكثر مما كانت تحتسب. وقد لزم عن ذلك ان العالم الاوروبي الذي خرج تدريجياً من فوضى القرون الوسطى كان عالماً مسيحياً موحّداً، في العقيدة والكنيسة. هذا من الناحية النظرية. ولكن الواقع كان غير ذلك. فقد شهدت اوروبة، بسبب المنازعات

الاكليركية التي لا نستطيع بحثها هنا والتي بدت متعذرة التسوية ، قيام كنيستين مسيحيتين ، الاولى في الشرق ، والاخرى في الغرب . وتعرف الكنيسة الشرقية التي يرئسها بطريرك القسطنطينية بالكنيسة اليونانية الارثوذكسية ، في حين يرئس البابا الكنيسة الغربية ، المعروفة بالكاثوليكية ، والتي اصطنعت اللغة اللاتينية اداة للتعبير في عباداتها وفي ما يصدر عنها من فكر . وبما كانت الحضارة التي نعنى بدرسها في هذا الكتاب قد نشأت في بلاد الكنيسة اللاتينية فستكون هذه الكنيسة ، من دون شقيقتها الشرقية ، مدار الفقرات الباقية من هذا الفصل .

الكنيسة هي السبيل الوحيد للخلاص

كان الغرض الرئيسي من الكنيسة ان تكون واسطة لانقاذ الرجال والنساء من اللعنة الأبدية التي حلت عليهم بسببٍ من خطيئة ابويهم الاولين ، آدم وحواء . وبفضل يسوع المسيح ، وهو في نظر النصارى ابن الله الوحيد ، وافتدائه البشر بدمه ، محيت اللعنة الاصلية واصبح الخلاص ممكناً للمرة الاولى . وساد الاعتقاد بان المسيح نفسه استودع الكنيسة حق الافادة من هذه الفرصة الجديدة باعتبار انه سمى بطرس الرسول ، بالذات ، ليكون خلفاً له في حكم جماعة المؤمنين . [« **وانا اقول لك ايضاً أنت بطرس ، وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي ، وابواب**

الجحيم ان تقوى عليها . » إنجيل متى ، الاصحاح السادس عشر ، الآية ١٨] وكان على الكنيسة ان تقضي تدريجياً وبعد نضال غير يسير ، على عدد من المنظمات التي ادعت هي ايضاً انها مسيحية ، معتبرة هذه المذاهب المتباينة بدعاً او هرطقات محرمة . ومن ثم أُعلن جميع المسيحيين المنتسبين الى هذه الكنيسة ، التي دعت نفسها كاثوليكية ، بطرس الرسول مؤسساً ثانياً للمسيحية ، واتخذوا مدينة رومة عاصمة لها . ولما كان المعتقد الاساسي عند جميع المسيحيين الصالحين ان يسوع المسيح ، ابن الله ، قدم نفسه قرباناً على الصليب ليهديء ثائرة الاله ، ابيه ، على ذرية آدم فقد كان سهلاً وطبيعياً ان تعتبر الكنيسة ، التي أُعلن المسيح مؤسساً لها ، السبيلَ الوحيد المفوض من قبل الله ، لحمل الخلاص الى كل من يطلبه من الخاطئين . وقد عبر احد الاباء المسيحيين عن ذلك في ايجاز حين قال : « **ليس من خلاص خارج الكنيسة .** » وان هذه القوة التي تلقي الرعب في القلوب والتي مكنت الكنيسة من ان تفتح ابواب الجنة والجحيم وتوصدها لهي التي تفسر لنا ما كان لهذه المؤسسة من سلطان عظيم على عقول الناس في ذلك الزمان .

أسرار الديانة المقدسة هي روح الكنيسة

وكان من همّ الكنيسة ، بالنسبة الى هذا المقام السامي الذي تمّ لها ، ان تبقي اتباعها عن ذِكرٍ لحالة الخطيئة التي

هم فيها ، وذلك بان تشملهم بعطفها ومحبتها . من اجل هذا عُنيت الكنيسة باصطناع عدد من الاجراءات المهمة ، فأنشأت قانون إيمانٍ يتضمن اصول العقيدة المسيحية ، واخرجت للناس مجموعة من الصلوات تسمو بالنفوس وتصلح لمختلف مناسبات الحياة ، ونظمت سلسلة من الطقوس عُنوجت باحفلها بالوقار وارفعها في النفس وهو القداس . ولكنها فوق ذلك كله وضعت **أسرار الدين السبعة** كأداة ضرورية فعالة لادراك الخلاص الذي كان الشغل الشاغل لكل رجـــل ، وامرأة ، وطفل . والواقع ان هذه الاسرار تنطوي على كثير من تعاليـــم الكنيسة وطقوسها بحيث يكشف لنا مجرد الالمام بها لا عن اهمية تلك المؤسسة البالغة ، طوال القرون الوسطى ، فحسب بل عن مبلغ تأثر الفرد بسلطانها الروحي ايضاً . فعن طريق نظام الاسرار هذا استطاعت الكنيسة ان ترافق ابناءها في حياتهم كلها من المهد ، الى ظلمة القبر .

أسرار الدين السبعة

نبدأ بسر **الكهنوت** الذي يمنحه الاسقف ، وهو خاص برجال الدين . هذا السر يخلع على المرشح للكهنوت صفة الكاهن ويجيز له منح سائر الاسرار المقدسة خلا سر التثبيت المقصور ايضاً على الاساقفة . وقد وضع سر الكهنوت حداً فاصلاً يقسم الجسم المسيحي الى قسمين ، بعد إذ ميز رجال

الدين ، المدعوين خصيصاً لخدمة الله ، عن جمهرة الناس العاديين . **وبسر المعمودية** يكتسب الوليد عضوية الكنيسة . والماء المقدس الذي تمسح به جبهته انما يفيد ان نصيبه من خطيئة آدم قد سقط عنه ، وانه اضحى مسيحياً وبناً لله . وعندما يبلغ الصبي او الفتاة حوالى الثانية عشرة من العمر وبعد ان تتم لكل منهما معرفة صالحة بقانون الايمان وتقاليد الكنيسة يمنحه الاسقف **سر التثبيت** بأن يمسح جبينه بالزيت المقدس والبلسم . والغرض من هذا الصنيع جعل الناشيء المسيحي اقوى على مغالبة الاغواء في معركة الحياة . اما إذا استجاب ، برغم ذلك ، للاغواء ، فوقع في الخطيئة فانه يستطيع ان يلتمس الغفران من طريق **سر التوبة** (**او سر الاعتراف**) وهو يقتضي طالبه اربعة اشياء « أ » ان يأخذه الندم على الخطيئة التي اقترف . « ب » ان يعترف شفهياً لكاهن من الكهان . « ج » ان يتلقى الحل من كاهن ما . « د » ان يرضى بان يكفر عن خطيئته تكفيراً خاصاً ، وذلك من طريق الحج او التصدق وفق ما يراه الكاهن مناسباً . وفي ساعة الوفاة يقف الكاهن الى سرير الميت فيقوي روحه على الرحلة الابدية ويمسحه بالزيت المقدس . من اجل ذلك يدعى هذا العمل **سر مسحة المرضى** . ويربط **سر الزواج** الرجل والمرأة برباط الزوجية المسيحية الشرعي ، وهو رباط ليس للقوة الانسانية ان تحله . ان الكنيسة التي جمعت ما بين الزوجين هي وحدها التي تستطيع ان تلغي

ذلك الزواج . وحتى الكنيسة لا تستطيع ان تفعل ذلك الا في حال واحدة ، وهي حينما تغفل احدى القواعد الطقسية في حفلة الزواج . واخيراً فان هناك **سر القربان المقدس** « الافخاريستيا » وقد نشأ عن العشاء الرباني كما وصف في الاناجيل ويشمل تكريس الكاهن للخبز والخمر ، واستحالتهما المعجزة الى دم المسيح وجسده ، وتقديمها في هذا الشكل المكرس الى العزة الالهية تحيةً لذكرى تضحية المسيح الاصابة على الصليب . ويُعتبر تغيير الـــمادة واستحالتها في الهيكل السر الاعظم في الكنيسة . وقد تطور سر القربان المقدس اخيراً ، بعد ان احيط بطقوس الغناء المحكم ، وبعد ان اصطنع فيه كل ما يوقع الهيبة في النفس ، من شموع وبخور وثياب ذات بهاء ، فانبثقت منه تلك الصلاة الفخمة المعروفة بالقداس .

حكومة الكنيسة وادارتها

إننا مع اعترافنا بان هداية المؤمنين الروحية المركزة في نظام الاسرار كانت هي العمل الرئيسي للكهنة ، جديرون بأن لا نغفل اعمالاً اخرى انبثقت من هذا النظام وكانت اكثر اتصالاً بالحياة الدنيا . وإذا ذكرنا ان حكومـــة الكنيسة الخاصة كانت تقع على عاتق رجال الدين دون غيرهم ، وان الكنيسة كانت تتألف ، في جانبها المادي ، من بيوتٍ للعبادة لا تُعَدّ ، ومراكز اكليركية ، وممتلكات

اقطاعية وغير اقطاعية عديدة تعيّن علينا ان نعترف بان نشاط الكنيسة الدنيوي لم يكن قليلا ، ولا ضئيل الشأن. ولكي تتمكن الكنيسة من القيام بتبعاتها الكهنوتية ، من روحية وادارية ، فقد اصطنعت لنفسها نظاماً محكماً يمتدّ من **كاهن الابرشية** ، في ادنى درجات السلم ، حتى البابا في اعلاها . كانت **الابرشية** وحدة الادارة الاقليمية ؛ وفوق الابرشية كانت **الاسقفية** ، ولها السلطة على عدد من الابرشيات برئاسة الاسقف . وتتألف المقاطعة من عدد مختلف من الاسقفيات ، ويتمتع فيها بالسلطان الاعلى اسقف كبير يعرف برئيس الاساقفة . وتتوّج هذه السلسلة المؤلفة من الكاهن والاسقف ورئيس الاساقفة بالبابا ، رأس الكنيسة غير منازع ، المقيم في رومة القديمة المكرّمة . وتضم رومة ، بوصفها محوراً لدولاب الادارة الكنسية ، عدداً لا يكاد ينتهي من الموظفين ، بعضهم ملحق بالديوان البابوي، وبعضهم بالمحاكم ، وآخرون بالخزانة المالية . وابرز هؤلاء الموظفين المركزيين ، على الاطلاق ، **مجمع الكرادلة** ، وكان البابا البابا يسمي هؤلاء ليشاركوه في حكم الكنيسة ، حتى اذا توفي تحملوا تبعة اختيار خلف له .

الفرق الرهبانية تعبر عن روح الورع في العصر الوسيط

الى جانب هؤلاء الموظفين الذين وقعت على عواتقهم اعباء حكومة الكنيسة ، واستجابةً للروح الزهدية التي طبعت

العصر ، نشأت مجموعة اخرى من رجال الكنيسة يجب ان تعتبر الظاهرة الاكثر خصوصية للمسيحية الوسيطة . وليست هذه المجموعة غير الرهبان والراهبات الذين انتظموا في عدد كبير من الرهبانيات اسسها رجال ونساء تعمر نفوسهم حماسة دينية لا يخمد ضرامها . والواقع ان بعض الرهبانيات الاكثر شعبية انتشرت انتشاراً سريعاً في الصعيد الاوروبي كله ، فكثر المنضوون تحت لوائها ، واستطاعت ان تحقق لنفسها ، من طريق هبات المؤمنين السخية ، مركزاً تحسد عليه قوامه اراض واسعة وعقارات ضخمة . واقدم هذه الرهبانيات وابعدها شهرة **رهبانية البندكتيين** التي اسسها **القديس بندكتس** St. Benedict في القرن السادس (٥٢٩ ب.م) في حين ان **الكرتوزيين** Carthusians وغيرهم من اهل الرهبانيات المتأخرة لم يبلغوا بعض ما بلغه البندكتيون من حيث الثروة ، والشعبية ، والسلطان .

الرهبانية المتسولة

وفي القرن الثالث عشر ظهرت الفرقتان الشهيرتان : **الفرنسيسكانية والدومينيكانية** ، في جو متقد من الاحياء الديني ، حاملتين الى الدنيا المسيحية مثلاً تختلف بعض الاختلاف من التي كانت لسابقتها . كانت الفرق القديمة — وكلها منضم كثيراً او قليلا على المثال البندكتي — تضع التوكيد على حياة التأمل الروحي المجتهد ، في عزلة عن العالم

ومغرياته . اما الفرنسيسكان والدومينيكان فسعوا الى الأوساط المزدحمة بالبشر ليوزعوا على الفقراء والمعوزين ألطاف الأحسان المسيحي . وإذْ قد اخذوا أنفسهم بالفقر والعفّة ، والطاعة — وهي نذورهم الأجبارية الثلاثة — والتمسوا رزقهم ، اول الأمر على الأقل ، بالتنقّل من باب الى باب واستجداء الناس فقد ميّزوهم عن الفرق السوابق باسم « **الاخوة المتسولين** » .

تنازع السلطات بين البابا والاساقفة

وكان يقوم على الاديرة رؤساء يديرون شؤونها ، وكانوا ومرؤوسيهم من الرهبان خاضعين ، في العادة ، لسلطة الأسقف الذي يتفق أن يكون ديرهم واقعاً ضمن اسقفيته . ولكن فرق الاخوة المتسولين ، وكذلك بعض رؤساء الأديار أحياناً ، التمسوا من البابا الحقّ في أن يكونوا مسؤولين أمامه ، دون غيره ، فاجيبوا الى ذلك . وطبيعي ان يفيد البابا من هذا التدبير ، فقد قيّضَ له جيشاً من الأتباع المتصلين به مباشرةً ، والمنبثين في أطراف العالم المسيحي كله . ولكن ربحَ البابا كان خسارة بالنسبة الى الأسقف . وقد نتج عن هذا النزاع بين السلطة المحلية والسلطة المركزية في الكنيسة أن كثيراً من الاسقفيات أصبحت مسرحاً لخلافاتٍ مريرة ، وإن تكن في الغالب محجوبةً بستار ، بين الاسقف وتابعيه من الكهان من ناحية ،

وبين رئيس الدير يؤيده الرهبان أو الاخوة من ناحية ثانية .

الاكليروس يؤلفون الطبقة الاولى في المجتمع الوسيط

كان رجال الكنيسة ، من البابا حتى الكاهن ، مضافاً إليهم رجال الفرق الرهبان ، يؤلفون طبقةً بيّنة الحدود والمعالم في المجتمع الوسيط يُطلق عليها اسم **الأكليروس** . وإن الاحترام الذي كان يتمتع به الأكليروس ليظهر من انهم احتلوا في كل مكانٍ من أوروبة المقام الأول وعُرفوا **بالطبقة الأولى** . أما سائر سكان الدولة الأقطاعية فكانوا طبقتين : الأولى تنتظم **النبلاء** ، وتُدعى **الطبقة الثانية** ، والأخرى تضمّ **العوام** وتُدعى **الطبقة الثالثة** . ولم يكن لأهل الطبقتين الثانية والثالثة ، لا من الناحية النظرية ولا من الناحية العملية ، أيّ عملٍ في حكومة الكنيسة التي كانت مقصورةً إطلاقاً على الطبقة الأولى : الأكليروس .

الكنيسة تعمل كدولة مستقلة

على ضوء هذه المراجعة الموجزة لسلطة الكنيسة وحكومتها نجدُ أنفسنا الآن مهيئين أتمّ تهيئة للاتفاق على ان مكانها في المجتمع الوسيط كان مختلفاً جداً عن حالها اليوم . وفي الحقّ ان الكنيسة كانت دولةً ، وكانت اكبر بكثير من الدول الاقطاعية التي كان للكنيسة سلطةٌ فيها ، بحيث أنها استطاعت أن تحجبها جميعاً . وبفضل هذا التفوق حققت

الكنيسة لنفسها ما يعرف بالحصانة ، اي انها اكتسبت من السلطة المدنية إعفاءً من الضرائب ، وحقاً للأكليروس في ان يكونوا مسؤولين امام المحاكم الكنسية دون غيرها . حتى إذا رُمي احد هؤلاء بجرم سيق الى القضاء الأكليركي ليحاكمه قضاة اكليركيون وفقا للقانون الكنسي . وكانت قرارات المجامع الكنسية واحكام الباباوات مادة هذا القانون الذي بلغ من شأنه ، في عالمٍ يسيطر عليه الأكليروس ، ان اصبح موضوعاً للدراسة التخصصية في الجامعات . ليس هذا فحسب ، بل إن المحاكم الأكليركية كان لها السلطة على الأهلين في بعض المسائل المهمة ، كالزواج والطلاق والنظر في الوصايا وتحقيقها . ومن هنا اصبح رجال الدين الخاضعون في كل شيء للسلطة الأكليركية رعايا للكنيسة غير مسؤولين ، في حين دان سائر الناس بالطاعة لدولتين هما الكنيسة والدولة المدنية التي يقيمون ضمن تخومها ، وكل منهما تفرض عليهم سلطانها في مسائل معينة .

الكنيسة تجبي العشور وتسيطر على التعليم

وكان للكنيسة عملٌ آخر حققت فيه حدّ الدولة ، هو جباية الضرائب . وإذ كانت الكنيسة تملك ممتلكاتٍ إقطاعيةً واسعة ادّعت لها الحصانة ولم تدفع الى السلطات المدنية اي ضريبة عنها فقد تمتعت بموردٍ ليس بالقليل . وكان هذا المورد الذي يفيض من اجور الممتلكات هو قوامَ العائدات

الكنيسة . وايا ما كان فالواقع ان موارد الكنيسة كانت اقلّ من ان تنهض بالنفقات الكبيرة التي يقتضيها نظامها المترامي الأطراف . ومن هنا اكتسبت الكنيسة الحقّ في ان تجبي ، في كل بلدٍ قامت فيه ، ضريبةً تدعى العُشْر ، وهي تبلغ نظرياً عُشر نتاج الأرض السنوي ، وإن نقصت عملياً الى ما دون ذلك في الغالب . فاذا علمنا ان الكنيسة — وقد اخذت نفسها بهداية النوع البشري الضال — تولت مقاليد التربية وأدارت مختلف المدارس القائمة آنذاك ، أضفنا لوناً جديداً الى الصورة العامة يمثل مدى سيطرة الكنيسة على نفوس المؤمنين ، واستحواذها على خيالهم . ولا يتوهمنّ أحدٌ خطأً واحداً ، أن قيام الكنيسة بالتوجيه التربوي وجبايتها للضرائب وإنشاءها للمعالم كان يقتضيها غير مشروع . ففي فوضى المدة الأولى من العصر الوسيط ، يوم كانت دول اوروبة الصغرى ما تزال في طور التكوين فهي في مثل ضعف الاطفال ، انتهت هذه المهام كلها الى الكنيسة لأنها كانت السلطة الأشدّ قوةً ، وفي بعض الاحوال الاستثنائية ، السلطة الوحيدة التي احتفظت ، وسط انحلال المجتمع العام ، بالقدرة على البقاء .

الكنيسة تدعي المساواة بالدولة ثم السمو عليها

بيد ان الدول المدينية ما لبثت ان اشتدّ ساعدها بفضل نمو المدن ، كما رأينا ، وأحست بوطأة سلطان الكنيسة غير

العادي ، فكان الاصطدام بين الدولة والكنيسة أمراً لا مفر منه . والحق أن الاصطدام بدأ حتى قبل ان تصبح المدن قوة تذكر ، ليضج العصر الوسيط كله ، كما هو معروف ، بهذا الصراع . ومهما يكن من امر فيجب ان لا يفوتنا النص على ان هذا الصراع مناقض لنظرية العصر السائدة ، تلك النظرية التي كانت تؤكد ان كلًا من الكنيسة والدولة من عند الله ، خلقهما خدمةً لعباده ، واستودع إحداهما السلطة على ارواحهم ، واستودع الاخرى السلطة على أبدانهم . وعلى رأس هاتين المؤسستين المتممة إحداهما للثانية أقام الله البابا والملك ، وحباهما على التعاقب السلطتين الروحية والمادية على النوع البشري . ولكن لما كان الاباطرة والباباوات قد خرجوا في الواقع على العمود ، وانغمسوا في خلاف مستحرّ مطّرد بدلاً من ان يعملوا في تناغم وتجانس ، فأن بعض الباباوات الاقوياء من مثل غريغوريوس السابع ، وانوسنت الثالث ، وبونيفاسيوس الثامن تاقوا الى اطراح نظرية المساواة القديمة والأخذ بنظرية تبعية الامبراطور والحكام المدنيين أياً كانوا ، للبابا الذي يُعتبر وحده ممثل الله الحقيقي الناطق باسمه . وهكذا ذهبت النظرية البابوية المتأخرة ، التي تكونت يوم كانت الكنيسة في أوج قوتها ، الى القول بأنه لما كانت السلطة الدينية ، وكذلك السلطة المدنية ، قد مُنحتا للبابا بالحق الالهي ، فان الامبراطور ومن دونه من الحكام المدنيين طبعاً إنما يدينون بعروشهم للبابا . ولا خلاف في ان النهضة بنزعاتها

الدنيوية القوية ستتصدر لتحدي هذا الموقف المتطرف ، والدفاع عن استقلال الملوك المدني دفاعاً موفقاً .

رجال الدين يسيئون استعمال سلطانهم

ولما كان رجال الدين أغنى الطبقات وأجزلها احتراماً في أوروبة — الطبقة الأولى — فقد دفعوا ثمن هذه القوة شيئاً اكثر من التعرض العادي لألوان الاغواء . فطوال العصر الوسيط وُجهت اليهم اتهـــامات جدية بالفساد والانحـــلال . وكان الباباوات والاساقفة يقومون بين الفينة والفينـة بالاصلاح ، ولكن الفساد ظل رائجا رغم هذه الجهود الجديرة بالتقدير ، فهو لا يكاد ينكمش حتى يُطلع رأسه من جديد . والواقع ان الطبيعة الانسانية ضعيفة ، سريعةٌ الى الشر حتى وهي في قلنسوة الكاهن ورداته الابيض . ولعل اهم ما كان يؤخذ على الأكليروس بيع المناصب الكهنوتية وشراؤها . وقد عدت الكنيسة ذلك — بصورةٍ رسمية — إثما كبيراً ؛ ولكن كثيراً من رجال الدين ، حتى الباباوات كانوا في غير نجوةٍ من ذلك . وإذ كانت الاسقفيات والابرشيات تدر اموالا ضخمة ، فمن اليسير ان نتمثل كيف كان اولو الطموح من الرجال يبتغون الوسيلة اليها ، ولو بثمن من الرشوة باهظ . وتهمةٌ ثانية وجهت الى اكليروس الدرجة الاولى هي انهم كانوا يحيون حياة تكبر وترف دنيوي تختلف جداً من حياة الرسل الاولين ، واتباع المسيح المتواضعين . فقد خرج كثير

منهم للقنص ، بل خرجوا للحرب ، وعاشوا في قصور بهيجة فخمة يغمرها جوٌ من الفرح والمرح لا ينقضي . اما الكليروس الدرجة الثانية فقد رُموا بابتزاز الرسوم الباهظة من اهل ابرشياتهم ، في حال الزواج والدفن وغيرهما من الخدمات الضرورية . وهناك ادلةٌ قاطعة على ان كثيرا من رجال الدين ، من مختلف الدرجـــات ، كانوا متهمين برذائل شهوانية خطيرة . وقد وُجّهت هذه التهمة الاخيرة بخاصة الى الرهبان والاخوَة ، ثم ازدادت شدّةً وحدّةً باقتراب عهد الاصلاح .

نقد العقيدة والنظام يعتبر بدعة

هذه المساوىء كانت موضع انتقاد الكهان المستقيمين ، أولي العزم ، وفي بعض الاحيان موضع انتقاد نفر من اصحاب الرتب العليا في الكنيسة ، طوال العصر الوسيط . ولم يغضّ من قدر الكنيسة ان تعترف علناً بأن بعض رجالها لا يستحقون شرف الانتساب الى هذا السلك الرفيع . فقد اعتبر سلوك الاكليركيين الشخصي ميدانا للنقد المباح . ولكن الحال كانت غير ذلك في حينما مسّ شرارُ النقد نظام الكنيسة او معتقداتها ، لان هذه من صنع الله نفسه ، فهي مطبوعة بطابع مقدّس لا يمكن تبديله أو تعديله . والواقع ان هذا النقد اعتبر تجديفاً وسباباً حملت عليه الكنيسة بأسلحة حداد . فقد رمت هؤلاء النقاد بعار الهرطقة ، والقت حرمها

عليهم ، طاردةً ايام من تبعيتها ، ومحظرة على الناس الاتصال بهم ، تقف بهم عند هذا الحدّ ، لان تحرجاً قديما كان يمنعها من اراقة الدماء . ولكن قسيمتها الدولة كانت تتقدم ، في مثل هذه الاحوال ، الى القاء القبض على المبتدع ، بوصفه عدوّاً للشعب ، لتسلبه الحياة ، إحراقا بالنار عادةً

العصر الوسيط يشهد ظهور عدد من البدع الفردية والجماعية

وعلى الرغم من طرائق القمع التي اصطنعتها الكنيسة فأن الهرطقة لم تكن شيئا نادراً في العصر الوسيط . بل ان العصر نفسه الذي بلغت فيه الكنيسة مطلق السلطان لم يَخلُ من نفوسٍ قوية تؤكد بين الفينة والفينة وجهة نظرها الخاصة . وليس من همنا ههنا ان نتكلم على اولئك الهراطقة المتفرقين الذين اطلعوا رؤوسهم في مختلف زوايا اوروبة ، على الرغم من انهم يحتلون مركزاً مرموقاً في تاريخ العصر الفكري . ولكن هناك بالاضافة الى هذا حركات هرطقية تعاون على نشرها الكثيرون ، في بقاع واسعة من اوروبة ، فعرضت وجود الكنيسة لخطرٍ حقيقيّ . من هذه الهرطقات الجماعية نشير بخاصة الى تلك التي ذهبت اليها جماعة **الألبيجوازيين** ، في مطلع القرن الثالث عشر ، والتي شملت معظم فرنسة الجنوبية . فقد ذهب هؤلاء الألبيجوازيون الى حدّ الهجوم على نظام الاسرار المقدسة ، حتى اذا ثبت للبابا إنوسنت الثالث ان الحرم اعجز من ان يقف نشاطهم ، دعا في سنة

١٢٠٨ الى شن حرب صليبية ضدهم ، ليتوّج انتصاره الذي لم يتم الا بعد نضال مخيف بانشاء محكمة خاصة تدعى **ديوان التفتيش** . وكان من صلاحية هذا الديوان ان ينظر في آراء المشتبه فيهم ليأخذهم باضأل انحراف عن عمود الارثوذكسية . وإذ قد استطاع ديوان التفتيش ان يغرق الاليبجوازيين في بحر من الدماء ، بالمعنى الحقيقي للكلام ، فقد تابع عمله كاداة ناجحة من ادوات القمع الاكليركي ؛ وهكذا تمتع بشهرة لا يحسد عليها في الوحشية والمغالاة في التعصب الديني . ومع ذلك ، وبالرغم من الشدة التي اصطنعت في القضاء على ثورة الاليبجوازيين فقد ظهرت حركات احتجاج اخرى من حين الى حين . ففي القرن الرابع عشر اعلن **جون ويكلف** John Wyclif حركة هرطقية في انكلترة قالت بان الفرد ليس في حاجة الى ايما وسيط بين ذاته وبين الله ، فلم تتمكن الكنيسة من القضاء عليها الا بعد عشرات من السنين ، لتبدأ بعد قليل حركة مماثلة قام بها **جون هس** John Hus ضد السيطرة الاكليركية في بوهيمية . وعلى الرغم من ان هس دفع ثمن جرأته بالموت حرقاً (سنة ١٤١٥) فان البدعة التي تزعّمها ظلت تقلقل بلاده ، بعد موته ذاك ، اجيالاً متطاولة .

فكرات وقوى جديدة تؤذن بعصر جديد

هذه الحركات الثورية الجماعية ، وقرائن كثيرة غيرها ، لا تنهض دليلاً على ان الكنيسة خسرت سلطانها القديم غير

المنازع فحسب ، بل عـــلى ان الفكرات والقوى الجديدة كانت قد بلغت غاية كفيلة بتغيير التراث الوسيط ، والنظرة الوسيطة الى الأشياء ، أيضاً . أمـا ماهية هـــذه القوى والأحوال التي كانت تدفعها الى المقدمة فذلك ما سنحاول بسطه الآن . فلننظر في الطور الجديد ، او الثاني ، من اطوار الحضارة الغربية ، أعني ذلك العصر الذي يُعرف عادةً بعصر النهضة .

٣ . حضارة اوروبة في عصر النهضة

النهضة: عصر انتقال

رأينا انه ليس من كبير فرقٍ بين ان تُعْتَبر النهضة طوراً اخيراً من اطوار العصر الوسيط ، أو حقبةً مستقلة تؤذن باقتراب العصر الحديث . وهي على كل حال عصر انتقال زلزلت فيه المظاهر الاجتماعية والسياسية الخاصة بالعصر الوسيط ، والفكرات التي قامت عليها هذه المظاهر ، لتبرز الى النور فكرات جديدة نزعت الى ان تتجسد في اشكالٍ ومؤسساتٍ جديدة .

ولقد سبقت منا الاشارة الى ان المدن كانت المراكز الطبيعية لقوى الانتقال ، لأن الوان نشاطها الخاصة كانت خليقةً بأن تُثبت ، في السياق الطويل ، انفصامها عن كل ما هو عزيز على القلب الوسيط . ومهما يكن ، فقد تطورت المدن ببطء خلال عصور طويلة ، فلم تسارع الى اظهار عداوتها الكامنة للعصر الوسيط ، على الرغم من ان في استطاعتنا القول إن طبقة النبلاء ، وقد هُدّدت في سلطانها السياسي ، استروحت العدوّ بالغريزة وفي غير ما إبطاء . والواقع ان

المدن سايرت النزعة الطبيعية للمنظمات الناشئة التي لم يتبلور مستقبلها بعد ، فاضطرّت في طورها الأول الى ان تعقد اتفاقات عملية مع السلطات القائمة ابتغاء التوفيق بين مصالحها ومصالح هذه السلطات . وقد نجحت المدن في ذلك الى درجة بعيدة مكنتها من ان تنسجم مع النظام الاقطاعي السائد انسجاماً حسناً يسيراً كان من نتائجه قيامُ توازن غير مألوف بين مختلف القوى والطبقات التي تؤلف المجتمع . وإن الدليل على ذلك لينهضُ من هذه الحقيقة وهي أن العصر الوسيط لم يبلغ أوجه إلا بعد ظهور المدن ، خلال القرن الثالث عشر .

وعلى أيّ حال ، فاذا كان القرن الثالث عشر يمثل ازدهار العصر الوسيط وبلوغه الذروة فأن انحلال العالم الوسيط ، بسببٍ من نموّ المدن المطّرد ، وبسببٍ من استفحال عدم التوازن اللازم عن ذلك النمو ، اصبح واضحاً ملموساً في القرن الذي تلا ، اعني القرن الرابع عشر . والحقّ ان التبدّلات المتعددة الجنبات التي ما لبثت ان طرأت في كل حقل من حقول الفكر والنشاط الانساني لتؤلفُ مادةَ كل دراسةٍ تعنى بعصر النهضة . فلننظر الآن في هذا العصر ، من زوايا ثلاث ، ابتغاء فهمه احسن الفهم وايسره .

« أ » تطور التجارة والصناعة

المدينة نشأت استجابة لحاجات انسانية جديدة

تأثرت التجارة في اوائل العصر الوسيط بالاحوال السياسية

الاقتصادية السائدة في ظل نظام الاقطاع . وليس من ريب في ان القرون الطويلة من الاستيطان الجرماني كانت عصراً يعوزه الأمن ، وتعوزه الطرق ، وتعوزه اسباب الحياة جميعاً ، حتى في ابسط اشكالها . ذلك ان المجتمع لم يكن ليكفي ، في احسن الأحوال ، غير عددٍ ادنى من الحاجات الانسانية ، وكان أبسط وأخشن وأفقر مما نستطيع ان نتخيل . من اجل هذا كان على التجارة ، يوم عاودها النشاط حوالى السنة الألف بعد الميلاد ، ان تسير ببطء وحذر في الطرق التجارية التي كانت تبدو ، في ذلك العالم الذي تسوده فوضى الاجتماع ، اكثر امناً واسلم عاقبة . ولم تكن تلك الطرق غير الخطوط الساحلية في البحر الابيض المتوسط ، وبحر الشمال ، وبحر البلطيق ، بالاضافة الى مجاري الانهار الكبرى الصالحة للملاحة كنهر الـ « يو » ، والسين ، والرون ، والدانوب ، والراين ، والتايمس . وعلى طول هذه الطرق البحرية والنهرية ابصرت الدور اولى المدن الغنية ، وان تكن ظهرت بانتشار الحركة في الداخل انتشاراً تدريجياً مستعمرات قامت حول الجسور وملتقى الطرقات ، او استظلت بظل قصرٍ من القصور او ديرٍ من الاديار .

نهوض المدن الايطالية

لقد رأينا المدن تطمح ، حال ظهورها ، الى الحكم الذاتي ، وتكتسب لنفسها رغم معارضة النبلاء الاقطاعيين

المجاورين قدراً من الحرية نمته مع الايام تنمية مطردة . وانما حققت المدن الايطالية اعظم نجاح في هـذه السبيل لان المعرضة الاقطاعية فيها كانت اخف واضعف . هـذا من ناحية . ثم ان هذه المدن تمتعت بفضل بعض العوامل الجغرافية بفرص للثروة والقوة اعظم بكثير من تلك التي كانت لغيرها . وإذ حملت المدن الايطالية لواء الزعامة على المدن التي زهت في اوروبة لذلك العهد ، فطبيعي ان تكون النهضة ، بوصفها عملية ثقافية ، من إبداع ايطالية في المحل الاول ، لتشع انوارها بعد من مركزها هذا على امصار اوروبة كلها .

أهمية موقع ايطالية على المتوسط ، وأهمية قربها من الشرق بخاصة

ولكي نقيم الدليل على التفوق الايطالي يجدر بنا ان نعتبر مواقع المدن الايطالية بالنسبة الى العالم الوسيط . ففي ايام الامبراطورية الرومانية كانت ايطالية ، كما هو معروف ، بلداً حافلاً بالمدن الكبيرة النشطة التي لم يكن يتعين عليها رغم ما صارت اليه من الانحلال المحزن إبان استيلاء القبائل الجرمانية على السلطة ، إلا ان تمّ خيوط ماضيها لتدرج من جديد على طريق الانبعاث . وكانت عظمتها التديمة راجعة في المحل الاول ، الى وقوعها وسط حوض البحر الابيض المتوسط ، وهو منذ الزمان الاقدم ، احفلُ بقاع العالم بالسكان وازهاها حضارةً ورقياً . واذا كانت هذه الحال قد تغيرت عهد إحياء المدن حوالى السنة الالف للمسيح

فلتزيد في امتياز شبه الجزيرة القديم . فالى غربيها وشماليها قامت ، في اسبانية وفرنسة وانكلترة والمانية ، مجتمعات بدائية ولكنها طماحة الى حياة افضل . في حين برزت الى شرقيها الدولة البيزنطية التي كانت لا تزال ، برغم انحلالها الواضح ، دولة ذات حضارة عالية ؛ بينما غرقت الدولة العربية ، وكانت في يوم بالغة السلطان ، في خضم التناحر الداخلي لتصبح بالاضافة الى ذلك ، وابتداء من القرن الحادي عشر ، هدف القبائل التركية المتوحشة المنطلقة من الهضاب الآسيوية الوسطى . ولما كان العرب قد اقتبسوا كثيراً من ثقافة الاغريق فقد تمتعوا بمستوى من الحضارة معادل لحضارة جيرانهم البيزنطيين ، وكانوا مثلهم صناعاً ماهرين ، وتجاراً ناشطين وضعوا القواعد لتجارة طموح انتهت الى اقاصي الهند والصين . وفي نطاق الامبراطوريتين البيزنطية والعربية وجدت اسباب الراحة والوان الترف التي فقدت اوروبة المتأخرة الفقيرة مجرد المعرفة بها . فقد لبس السراة الشرقيون حللاً حريرية موشاة بخيوط الذهب والفضة وازّينت عقائلهم بعقود اللؤلؤ والجواهر ذوات الالوان . في حين ان دور التجار المسلمين المغامرين في مصر والشام ، وكنائس القسطنطينية وقصورها غصت بضروب السجاد الزاهي والوان الزخارف الفضية والعاجية التي تنم عن مجتمع عريق في التمدن ، وعن ذوق رفيع مهذب . وعلى الرغم من ان جمهرة الناس المتأخرين في عالم المسيحية الغربي كانت تتمثل

الشرق ، عـــلى ما اظهرت الحروب الصليبية بجلاء ، ارضاً تفيض بالثروات الاسطورية فالحق ان الايطاليين هم الذين استجابوا لمغريات هذه الارض على وجه الخصوص . ذلك ان شبه الجزيرة الايطالية لم تكن محاذية للامبراطوريتين العربية والبيزنطية فحسب ، بل ان طرفها الجنوبي وجزيرة صقلية كانا لأجيال طويلة ميداناً لحرب العربية البيزنطية افاد منه الايطاليون معرفةً مباشرة بالسياسة الشرقية وألفة بفنون الشرق وبضائعه . والواقع ان تلك البلاد كانت في نظر الايطاليين هي ارض الشمس المشرقة ، وكانوا يتطلعون إليها واللهفة والاعجاب يترقرقان في محاجرهم .

الايطاليون يصبحون وسطاء طبيعيين بين الشرق والغرب

في هذه الحال ، اصبح التجار الايطاليون هم الوسطاء الطبيعيين بين الشرق والغرب . ففي كبريات المدن الساحلية من مثل أمالفي ، وبيزا ، وجنوا ، والبندقية انشأ الافراد المغامرون شركات تجارية وجهت مراكبها شطر الاسكندرية ويافا وعكا والقسطنطينية لتعود محملةً بضروب الحرير والجواهر والعقود الذهبية والعاج المنقوش ، وبصورة اخصّ ، بالأصباغ والتوابل والرقيق من الاسواق المشرقية . وإن في تجارة الرقيق كبضاعة من اكثر البضائع ربحاً ، وازدهارها عصورا طويلةً ، ما يلقي ضوءاً على صفة العصر البدائية الاغتصابية . اما البضائع الشرقية الاخرى فكانت دونما استثناء كماليات

ذات احجام صغيرة ؛ ومن هنا امكن حملها ، بعد ان تبلغ السيف الأيطالي ، على ظهور الجياد الى المناطق الداخلية من ايطالية ، لتعبر بعدُ شعاب الألب الى فرنسة والمانية . ومع الزمان اصبح في مقدور التجار الايطاليين ، وقد ازدادت مراكبهم اتساعاً وازداد ملاّحوهم براعةً ، ان يحملوا البضائع الشرقية في طريق بحريّ متصل ، عبر مضيق جبل طارق ، الى مدن القناة الانكليزية وبحر الشمال . والحق ان الايطاليين الحاذقين افادوا ، في السياق البعيد ، من كل طريق بريّ او بحري استطاعوا ان يصطنعوه ، فانتشروا بقوافلهم في اوروبة ، وجابوا بلدانها بلداً بلداً ، ليعرضوا في كلٍّ منها بضائع الشرق على الاهلين الأجلاف الذين كانوا يفغرون افواههم دهشةً وإعجاباً في وجه العجائب المنثورة امام اعينهم . إن رغباتٍ لم تقم في وهمهم من قبل طفقت تعتلج في صدورهم ، رغباتٍ اضطروا الى ان يقدّموا ، في سبيل تحقيقها ، نقودهم الذهبية والفضية الساذجة ، وتلك الخامات التي كانت تحفل بها بلدان الشمال من مثل الكتان والصوف والجلد والفراء . حتى اذا رجعوا بهذا كله الى ايطالية وهذّبوه بالبراعة الصناعية الايطالية ، حُمل من ثم على ظهور المراكب العائدة الى المشرق ، لاستكمال دورة التبادل الاقتصادي .

التقدم الاجتماعي والقانوني والنقدي الذي رافق التجارة

وما كاد هذا النظام التجاريّ يُدشّن حتى ادّى الى

ازدياد حركة الاتصال والتمازج . وفيما كان هذا النظام الجديد يحوّل مجاري الحياة الاقتصادية ، عدّل تدريجياً وجهَ اوروبة الطبيعي نفسه باقامة الجسور فوق الانهار ، وبأعادة انشاء الطرق الرومانية المهملة ، وشق طرق جديدة ايضاً . وقد برز الى الوجود ، في الوقت نفسه ، قانون دولي مبنيٌ على التجربة ، من طريق المعاهدات التي اقرّت بحق التجار في ان يكونوا آمنين على انفسهم واموالهم في عمى حكام المدن او البلاد التي يتفق لهم ان يسيحوا فيها . وليس من شك في ان علينا ان نحذر المبالغة في شأن هذا التقدم لأن حالة الفوضى الاقطاعية التي لاتعرف القانون كانت اشبه شيء بأفعى طويلة العمر ، متعدّدة الرؤوس . ولكن التقدم يظل حقيقة قائمة ، على ما يبدو من سعي التجار ، الذين افادوا من من تجاربهم ، سعياً مطرداً الى تجويد الوسائل التقنية technical في مهنتهم . لقد ادركوا اثر التعاون وتعودوه ، واسسوا شركاتٍ قائمةً على عقودٍ مكتوبة ، واحدثوا مصارف تُعِينُ على التجارة وتشجعها ، وابتدعوا سندات التحويل ليسهلوا المعاملات المالية بين البلدان المتباعدة ، وبذلوا غاية جهدهم لاستبدال نقد صحيح ثابت بتلك النقود الحقيرة التي كانت شائعة في العصر الوسيط ، والتي ما كان يمكنهم الاطمئنان اليها .

التجارة تعزز الصناعة وكلتاهما تبني نظام النقابات

ونتيجة اخرى هامة من نتائج التجارة المزدهرة ، انها

شجعت الفنون الصناعية تشجيعاً قوياً . وإذا تاق الغرب الى كماليات الشرق توقاً لا يندفع فقد كان حقاً عليه ان يقدم الى الشرق بضائع مماثلة من عنده ، وهي بضائع لا يجوز ان تكون ، بسبب مصاعب النقل وغلائه الى درجة عالية ، من نوع الخامات الأولية . ومن هنا فأن منظمات التجار الاولى ، او النقابات التجارية ، كما كانت تدعى ، ما لبثت ان تعاونت مع المنظمات الصناعية او نقابات الصناع من ناسجي الصوف والكتان ، وصانعي الاسلحة ، والمشتغلين بالجلود ، والفرائين ، وغيرهم ممن كان لنجاحهم المطرد العظيم اثر في تكاثف السكان في المدينة الوسيطة ، وفي ثروتها العامة ومقدرتها على الانتاج . وهكذا اصبحت السيطرة الاقتصادية في كل مدينة بيد النقابات التي حكرت بنوعيها الرئيسيين ، نقابات التجار ونقابات الصناع ، العمل الاقتصادي كله فيها . ويحسن ان لا نغفل الملاحظة ، مع ذلك ، ان النقابة كانت شيئاً اكثر من وحدة اقتصادية ، لانها خدمت اغراضاً دينية واجتماعية ، بل وسياسية ايضاً . والحق ان بعض النقابات ، غير الاقتصادية بالكلية ، اضطلعت باغراض اجتماعية ودينية خالصة ، على طريقة الفرق الاخوية الحديثة ، الى حد ما . وعلى اية حال ، فقد كانت النقابات الاقتصادية اقوى زميلاتها غير منازعة ، وكانت من هذه القوة في محل ساعدها على ان تتصدر هي ، او عدة من أثرى وحداتها مجتمعة ، للاستيلاء على مقاليد الحكم في المدينة في اكثر الاحوال . والواقع ان عضوية النقابة كانت تنطوي

على معنى القوة السياسية الفردية ممارسةً بطريقة جماعية. ومن هنا غدت هذه النقابات كبرياء مبررة تجلت اقوى ما تجلت في مراكز الاجتماع ، او قاعات النقابات ؛ وهذه مضافةً الى مركز البلدية او قاعة المدينة اتخذت المظهر الطبيعي ، الاكثر تعبيراً ، لكل جماعة ناشئة ، فهي تقدم في اتساعها وانسجام اجزائها وجمال تفصيلها مقياساً دقيقاً لاهميتها ومكانتها . وبكلمة موجزة ، ان على الراغب في التعرف جيداً الى حال المدينة في تلك الحقبة ان يفرغ لدرس خليتها العضوية : النقابة .

مناطق المدن الكبرى في ايطالية وفرنسة والنمسا

ولنقل كلمة اخيرة عن مناطق المدن الكبرى إبان النهضة . وإنما نستطيع ان نفهم ما نحن بسبيله على ضوء الاحوال التبادل العامة التي قدمنا خطوطها الكبرى . ففي ايطالية سبق النصف الشمالي النصف الجنوبي في تطور الحياة المدينية سبقاً بيّناً ، ، بسبب من قربه من طرق الالب التي تقود الى الاسواق القادرة على امتصاص البضاعة الشرقية . هناك قامت مدينتان احتلتا بين سائر المدن مقام الزعامة ، وهما البندقية وفلورنسة . اما البندقية فانشأت مستعمرات كثيرة زاهرة في شرقي البحر الابيض المتوسط ، لتنجح الى مدى بعيد في اقصاء جميع المدن الايطالية المنافسة عن هذا المسرح وفي ان تصبح هي الموزع الرئيسي للتوابل وغيرها من البضائع الشرقية في طول العالم الغربي وعرضه ؛ في حين

ان فلورنسة التي ارتفعت بصناعة النسيج ، من صوف وحرير ، الى درجة من الرقي لم يسبق الى مثلها من قبل ، نهضت بعبء الزعامة الصناعية والمصرفية في اوروبة . وفي جنوبي فرنسة ، اصبح وادي الرون منطقة للمدن هامة ، ولكنها مدن ما عتمت ان سقطت دون الغاية التي بلغتها مجموعة المدن القائمة على نهري المارن والسين في الشمال الفرنسي ، والتي تقدمتها جميعاً مدينة باريس في وقت مبكر . ولقد كانت حركة المدن ما تزال بعد في طفولتها عندما برزت الى الميدان مدن الراين القائمة على طول الطريق بين ستراسبورغ وكولوني ، لتتسع تجارتها وتعرض ، بفضل واد من امرع اودية اوروبة واخصبها ، وموقع ملائم سهّل لها سبيل الاتصال ، عبر الشعاب الالبية ، بالمدن الايطالية . كذلك كان للموقع الجغرافي المسعف اثر بعيد في نهضة مدن الفلاندر التي قامت مقام الثغور من اصقاع الراين البعيدة عن البحر . وكان لهذه المجموعة من المدن ، في قربها من انكلترة ، ميزة جديدة ، لما كان لانكلترة من المكان العالي في العالم الوسيط كمصدر من اعظم مصادر ذلك الخام الثمين : الصوف . واذ كانت هذه المدن تقوم باستيراد هذا الخام فقد نشأت فيها صناعة نسيج تعتبر القسيم الشمالي لصناعة فلورنسة الايطالية . اما المدن الانكليزية ، عبر القناة ، فلم تستطع منافسة مدن الفلاندر ، لتظل من هذه الصناعة في محل ادنى ، ازماناً طوالاً . غير ان الموقع التجاري الممتاز الذي تمتعت به

كثير منها ، وبخاصة المدن القائمة على نهر الدنيس العريض المنكبين ، ساعدها على ان تصبح مراكز تجارية مزدهرة .

المدن الالمانية تنتظم في المحالفة الهنسية *

بقي ان نقول كلمة عن منطقة المدن الالمانية الممتدة على سواحل البلطيق وبحر الشمال . فبالأضافة الى استثمار مياهها الحافلة بالاسماك عمل تجارها كوسطاء يحملون منتجات الروسيا الوطنية كالجلد والشمع والفراء ، ومنتجات اسكاندينافيا كالحديد والقار ، الى العالم الاوسع . وقد وقفت لوبيك وهامبورغ وبريمن في طليعة مدن هذه المنطقة . ولما كانت هذه المدن تخشى عدوان امراء الاقطاع المجاورين فقد تداعت عدة منها ، ساحلية وغير ساحلية ، الى الانتظام في اتحاد قوي يُدعى الـ « هانس » Hanse . وفي القرن الخامس عشر استطاع الـ « هانس » ، وقد بلغ قمة القوة ، ان يبسط سلطانه السياسي والاقتصادي على حوض بحر الشمال ، وعلى حوض بحر البلطيق بصورة اخص ، على طول الطريق من نوفغورود في الروسيا الى لندن وبروجز . وعند بروجز في الفلاندر التقى الرافدان العظيمان للتجارة الاوروبية المتأخرة عباب البحر الابيض المتوسط ، من ناحية ، وبحر البلطيق من ناحية ثانية ، فجعلا من هذه المدينة المركز التجاري

---

* من كلمة Hanse الجرمانية ، وتفيد معنى اتحاد التجار او المدن التجارية . [المعرب]

العالمي الاول حتى قيام مدينة انْتْوَرْب (انفَرْس) وتفوقها عليها في القرن السادس عشر .

« ب » — إحياء العلوم

خبرات جديدة تبعث على نشوء فكرات جديدة

كان من آثار انهماك سكان المدن بالتجارة والصناعة المتّسعتين ابداً ، ورحلتهم الى اقاصي البلاد يتعرفون الى اجواء جديدة وشعوب جديدة ، ونضالهم في سبيل السيطرة على الفوضى الاجتماعية والسياسية في العهـــد الاقطاعي ، ومحاولتهم اصطناع الحكم الذاتي ، ان اخذ العالم الذي عاشوا فيه سبيلَهُ نحو خَلقٍ جديد ، لتقوم من هنا حاجة لم يكن للمدينيين مَعْدىً عنها قوامُها العملُ على التوفيق بين موروث الافكار وبين الواقع الذي يحيط بهم .

الكنيسة الوسيطة تنادي بالتأمل الروحي هدفاً اسمى لها

رأينا من قبل ان اوروبة الوسيطة عاشت حياتها في ظل الدين والكنيسة السابغ . ولسنا نقول ذلك على سبيل المجاز ، لأن جوهر التعليم الديني في ذلك العصر كان يقول بان جسد الانسان ، والارض التي هو جزءٌ منها ، مأخوذان بخطيئة آدم ، فهما لا يستحقان من المسيحي الصحيح شيئـــاً غير الازدراء . ان الشيء الوحيد ذا القيمـة هو الروح . وإذ كانت هذه الروح آتيةً من عند الله ، فسيظل العالم الداني

ذبياً بها حتى تعود الى الاتحاد بخالقها . إن القصور ، والأرضين ، والأعياد ، وضروب التبرج والزينة ، كل اولئك وغيره من متاع الدنيا الفارغ المنظور لأحقرُ من غبار الحقول إذا قيس بكنوز الروح المحجوبة . واذا كان هذا حكماً جافاً متطرفاً على تعليم الكنيسة فمن الخير ، مع ذلك ، أن يُنصّ عليه لنفهم الموقف الجوهري الذي رسمته الكنيسة للمؤمنين ، من مشكلة الحياة على هذه الارض . إن الانسان لينسجم مع ارادة الله اذا ما اطّرح هذا العالمَ في سبيل العالم الأفضل الذي لا ريب فيه . إن خير امل له في الخلاص ان يكون زاهداً في مفاتن الدنيا .

نشاط المدنيين الدنيوي بتعارضه والاتجاه الاكليركي العام

ولم يمضِ وقت طويل نسبياً حتى شرع سكان المدن المنهمكون في الوان من النشاط تبعث في ذاتها على الابتهاج والفتنة ، وتهدي الى مكاسب مادية ضخمة ، يتساءلون الى اي حد يمكن ان تُطبق عليهم وعلى طبيعة نشاطهم عقيدةُ الكنيسة المثالية الخالصة ؟ لقد سرهم ان يكونوا احياء . لقد تمتعوا جهاراً بمفاتن الارض الحسية ذات الالوان ، وابتهجوا بما تم لهم من مكانة مالية مرموقة بفضل مواردهم المتعاظمة في اطراد . واذ كانت الكنيسة مؤسسة مرنةً تستجيب أبعد الاستجابة للمجتمع الذي تخدم ، فقد تلافت الاصطدام المباشر ، على الرغم من اننا لا نستطيع ان نغفل عن ملاحظة حقيقة

واحدة ، وهي ان تطور العقلية المدينية اتجه منذ البدء وجهة تتعارض والقواعد الاكليركية الاساسية .

المدرسة الوسيطة ونظام الجامعات

والحق ان الكنيسة المتسامحة لم تعمل على اظهار ذلك التعارض الداخلي السري لزعماء الفكر في المدن ، بقدر ما عملت تدريجياً واحدة من مؤسساتها الفرعية . ففي القرنين الحادي عشر والثاني عشر وسعت الكنيسة نظامها التربوي توسيعاً عظيماً بمضاعفة مدارس الاديار والكاتدرائيات ، وبأخذها بمنهج يؤكد على ما يدعونه **الفنون السبعة الحرة** — وهي الغراماطيق او النحو ، والبلاغة ، والمنطق ، والحساب ، والهندسة ، والفلك ، والموسيقى — ولكنه منصبّ في الواقع انصباباً بعيداً على اللاتينية بوصفها المادة الوحيدة التي لامعدى عنها في تربية تستهدف إعداد الاكليركي الصغير لعمله المقبل. وفي القرن الثاني عشر آتى هذا النظام اينع ثماره في مؤسسة طموح تبدو عليها مخايل الخير ، هي الجامعة . ولم يمض طويل زمان حتى شعت انوار الجامعات في بلدان اوروبة المتقدمة ، لتكسفها جميعاً جامعة باريس في شهرة اساتذتها وعدد طلابها .

الحركة الفكرية الوسيطة تستهدف التوفيق بين الايمان والعقل

كانت الجامعات تمثل إحياء فكرياً هزيلاً — ولكنه

اصيل – قائماً على بعض المخطوطات الفلسفية اليونانية ، والارسطوطاليسية بخاصة ، التي سلمت من عواقب الاهمال في الدور الاخير من ادوار الحضارة القديمة والدور الاول من ادوار الحضارة الحديثة في اوروبة . وعلى ان الآثار الارسطوطاليسية كانت قليلة فقد اعطت صورة حسنة عن نتاج العقل الاغريقي الرفيع . كان اساسَ الفلسفة الارسطوطاليسية نظامٌ في المنطق أحكم وضعه المفكر الاثيني الشهير كأداة لامتحان الحقيقة . وقد سَلِمَ هذا المنطق ، في سائحة من سوانح الاتفاق ، ليطرب باكتشافه من جديد استاذو الجامعات الذين اخذوا انفسهم بالتوفيق بين المعتقدات المسيحية القائمة في اصولها على الايمان وحده ، وبين قوانين ارسطو العقلية . فكان من اثر هذا العمل الذي تحمس له الجامعيون فلسفة عرفت **بالفلسفة المدرسية** نسبة الى انصارها من رجال المدارس *doctores scholastici* . وليس من ريب في ان زعيم المدرسيين (السكولاستيك) غير منازع هو **القديس توما الاكويني** (توفي ١٢٧٤) الذي جاء في اعقاب حركة قوية نامية ، فحل في كتابه الشهير الموسوم **بالخلاصة اللاهوتية** *Summa* المسألة الفلسفية في عصره حلا حظي بالقبول العام . فقد استطاع القديس توما ان يؤلف في « خلاصته » ما بين مقتضيات الايمان والعقل في دقة وفي رفق بحيث احتل كلٌ مكانه من غير ان يمس حقوق الآخر بسوء . وبذلك النصر بلغت الفلسفة المدرسية غايتها واستنفدت قواها ، ولكنها

بدل ان تقضي نحبها تحاملت على نفسها متخلفة عن القافلة تخلفاً كثيباً ، شأن الحركات المستظلة بظل مؤسسة قوية ، وشرعت تضع تفكيرها العتيق ، فتُحفظ سكان المدن النشيطين الواعين . لقد راعهم أن يكون التثقيف الذي نهض بعبئه في المدارس والجامعات ، اصحاب الفلسفة المدرسية الجامدون ، أبعد ما يكون عن حاجات المجتمع المديني ومشكلاته . والتمسوا — على الرغم من انهم لم يعوا ذلك ، في الاعم الاغلب ، الا وعياً غامضاً — سناداً فكرياً لطرائق حياتهم الجديدة ، الراغبة في الدنيا ، حتى اذا اخطأوا هذا السناد عند اساتذة الجامعات استقوا من المعين الآخر والوحيد الذي كان في متناولهم ، اعني معين القدماء .

القديس فرنسيس يمثل شعوراً جديداً نحو الحياة والطبيعة

وكان من آثار ذلك ، تلك الثورة الفكرية الموسومة بحركة إحياء العلوم . ومما تجدر ملاحظته انها نشأت ، الى حد بعيد على الاقل ، خارج الجامعات بل ضدها ايضاً . انها في الحق حركة مدينية لا حركة جامعية ، وخير شاهد على ذلك نشوؤها في المدن الايطالية الكبرى ، وفي فلورنسة على الخصوص . وقد ظهر روادها اول ما ظهروا في مطلع القرن الثالث عشر ، على ما نرى من مَثَل **القديس فرنسيس الأسيسي** St. Francis of Assisi (١١٨٢ — ١٢٢٦) ، وكان ذا نفس لطيفة طاهرة ، وقد نذر حياته — باخلاص ما

بعده — للمسيح ، وأسس فرقـــة من اعظم فرق الاخوة المتسولين هي فرقة الفرنسيسكان . ومن هذه الناحية لم يخرج القديس فرنسيس على عمود التفكير الزهدي الذي عرفه العصر الوسيط ، غير انه لم يفرض على رجاله العزلة في الاديار ، بل سيرهم في البلاد ليخدموا المعذبين من بني الانسان ، ولم تتولهُ الرغبة عن الدنيا ، بل وجد في ذات نفسه طربـــاً لمفاتن الطبيعة التي لا تحصى ، فهو يفتح لها صدره في مثل بهجة الطفل او الشاعر الساذجة ، داعياً الوحوش اخوته ، والطيور اخواته . فكان لذلك كله يتجه نحو هدف عصري في جوهره ، هو التأكيد على اهمية الكون والحياة .

بترارك نصير الثقافة الجديدة الاول

كان على النهضة ان تنتظر مائة سنة ، بعـــد القديس فرنسيس ، ليسطع في سمائها نصيرها الاول الذي جاهر بالدعوة الى إحياء الدراسات الكلاسيكية ، اعني فرنسيسكو بترارکا او **بترارك** Petrarch (١٣٠٤ — ١٣٧٤) وكان بترارك ذا نسب فلورنسي ، ولكن إبعاد والده من مدينة آرنو Arno اثر هزيمة سياسية ، قدّر له ان يولد في مدينة آرتزو Arezzo في توسكانية العليا ، لينشأ في ما وراء الالب في آفنيون Avignon القائمة على الرون ، وكان البلاط البابوي قد انتقل اليها حديثاً . ثم ان بترارك الصغير قفل راجعا الى ايطالية ابتغاء دراسة الحقوق في جامعة بولونيا Bologna

الحقوقية الشهيرة ، ولكنه ما لبث ان اطرح تلك المهنة التي لا تتفق وطبيعته ، عازماً في شجاعة بالغة ، على ان يحيا حياة عالم منقلب في البلاد . ولقد عرفته الاجيال المتأخرة، اكثر ما عرفته ، شاعراً افرغ حبه لـ « لورا » Laura في عشرات من القصائد الغنائية الحافلة بالموسيقى . واذ قد اصطنع اللغة الاهلية اداة للتعبير عن عاطفته الحية ، فقد غدا أحد مؤسسي الادب الايطالي . ومع ذلك فان بترارك الشاعر لم يكن في نظر رجال عصره ، شيئاً بالنسبة الى بترارك عملاق الفكر . وكان اظهر ما بدهم منه اعلانه ثورة واعية على اساتذة الجامعة الجامدي التفكير ، واعتزامه ان يطّرح غذاءهم التثقيفي الذي كان في نظره ضرباً من الهشيم الذي تذروه الرياح ، ليقبل على ذلك الغذاء الغني الذي ما يزال مخزونا في التراث الكلاسيكي . اما الذي جعل هذا التراث الذي ابدعه القدماء لألف سنة خلت او تزيد ، يبدو حياً ناضراً ما يزال ، في اعين اهل المائة الرابعة عشرة للميلاد ، فحقيقة بسيطة هيّنة ، هي ان هذا التراث كان يمثل التعبير الذاتي عن روح شعب ناشط انهمك بمقارعة المشكلات الانسانية الصميمة ، المنبثقة عن الاتصال بهذه الارض . فكان طبيعياً ان يلقى بروحه الدنيوي الصريح ، والمهذّب في وقت معا ، قبولاً حسنا لدى طبقة المدنيين الايطاليين الذين واجهوا نضالاً يماثل ، في الاساس ، نضال القدماء انفسهم .

بترارك يتصور « الانسانية » التراث الكلاسيكي

ومن الخير ان نقول ههنا كلمة عن روح التصور بترارك للتراث الكلاسيكي . فعلى الرغم من ان اللغة اليونانية كانت قد نُسيت في اوروبة الغربية ، وابتعدت كنوزها التي لا تثمن عن متناول الطالبين ، فان احداً من المؤلفين الاتين الكبار لم يحتجب عن العيون احتجاب الاغريق إبان العصر الوسيط . ذلك ان اللاتينية لم تجعل ، كما نعرف جيداً ، حجر الزاوية في مناهج التدريس الوسيطة فحسب ، بل ان آثار المؤلفين اللاتين ، وبخاصة فرجيل ، اصطنعت نصوصاً صالحة للتمكن من ذلك اللسان الغريب العسير . بيد ان هذه الدراسات التي فرضها نظام « الفنون السبعة الحرة » تحت اسمي الغراماطيق والبلاغة لم تكن في احسن الاحوال اكثر من تمرينات فيلولوجية (لغوية) جافة . واذ كان العصر الوسيط في شغل شاغل من دراساته اللاهوتية الفريدة فانه لم يقم بأيما محاولة للنفاذ الى روح المؤلفين الكلاسيكيين الذين تقبّلوا الحياة على هذه الارض بابتهاج ، وعاشوا في عوالم غير مفهومة ، بل وبغيضة الى اصحاب النزعة الزهدية الخالصة . ومن هنا لم يعمل بترارك في سبيل احياء الكتب القديمة بقدر ما اجتهد في تنوير عقله بالثقافة الحيوية المستودعة فيها لينهض بعدُ فيبشر بهذه الثقافة جميع الباحثين عن الحياة في زمانه . واذا كان بترارك قد ساير المنهج الوسيط فأبقى على اللاتينية كأساس للتدريس ، فقد

اكد من الناحية الثانية على ان الجيل الجديد يجب ان يتلقى الرسالة الحية التي يحملها النصّ ، ليهتدي بهديها المنير . وبكلمة موجزة : إن بترارك لم يرتضِ اللاتينية في سبيل التمكّن من لغة ميتة ، او في سبيل الجدل اللاهوتيّ الهبائيّ الذي يُدار بواسطتها ، ولكنه ارتضاها وسيلةً يفيدُ منها الطالبُ روحاً بهيجةً مقبلةً على الحياة . ولما كانت هذه الروح الرفيعة تتمثل افضل ما يكون في لفظ **الانساني** *Humanitas* فقد اصبح إحياء العلوم مرادفاً « للانسانية » * واصبح بترارك يُعرف بالانسانيّ الأول . ليس هذا فحسب بل إنه لما اكّد عليه من مفارقته الحازمة للمثل الوسيطة القاسية التي كانت ما تزال سائدة الى حدّ بعيد في عصره ، قد رُفع في شيء من المغالاة الى مقام « الرجل الحديث الأول » .

بترارك يفتتح عهداً جديداً في الدراسات الكلاسيكية

أما من الناحية العملية الخالصة فقد استهدف بترارك ، فوق كل شيء ، تحقيق المخطوطات الباقية من فرجيل ، وهوراس ، ولفي Livy ، وشيشرون وغيرهم من الشعراء والمؤرخين والفلاسفة اللاتين الذين شوّه عبثُ النسّاخ طوال أجيال من الاهمال آثارهم تشويهاً كبيراً . كذلك عني

* اطلق هذا الاسم على حركة الاحياء لعناية روادها بكل ما يمس الانسان ، في حين عني المثقف الوسيط بالمباحث الميتافيزيقية الالهية . [المعرب]

بأنشاء دور للكتب تجعل المخطوطات النفيسة أقرب الى متناول الدارسين ، وبالتنقيب عن الآثار الفكرية النفيسة الضائعة في خزائن الأديرة المغمورة ، التي يعلوها الغبار . ولكي تتم له تلك الأعمال على وجهها ، جمع بترارك حوله جمهرة من مريديه المتحمسين أفرغت الجهد في استنقاذ الآثار الكلاسيكية وتصحيحها واذاعتها في الناس .

استباحة كنوز الثقافة اليونانية واحياء وجهة النظر الكلاسيكية

ومع أن بترارك كان يجهل اليونانية فقد أدرك شأنها إدراكاً كاملا . ولم يمض جيل واحد على وفاته حتى دعي الى إيطالية عدد من علماء الشرق البيزنطي الوطنيين لينهضوا فيها بأعباء التدريس . وفي النصف الأول من القرن الخامس عشر تبع هؤلاء الرواد المتفرقين جماعات تقاطروا على البلاد مختارين بسبب استيلاء الاتراك العثمانيين شيئاً بعد شيء على بلاد الامبراطورية البيزنطية . حتى اذا سقطت القسطنطينية ، العاصمة الرومية ، نفسها سنة ١٤٥٣ في وجه الهجوم الآسيوي يمم عدد أعظم من العلماء شطر إيطالية حاملين معهم جميع المخطوطات التي استطاعوا إنقاذها من ديارهم المغلوبة ، بوصفها أنفس ما يملكون على الأطلاق . وبذلك أصبحت كنوز الثقافة اليونانية ، التي لا تعدل كنوز رومة بالنسبة اليها شيئاً مذكوراً ، في وجه الطالب الغربي ، وأصبح من اليسير عليه أن يلقى في كل مدينة من مدن إيطالية الكبرى

جماعة من العلماء « الانسانيين » المنصرفين الى حقول الفيلولوجيا (علم اللغة) والتاريخ والفلسفة الكلاسيكية يجنون ثمراتها اليانعة في شوقٍ عظيم وعناية بالغة . وإذا لم يَزِدْ بعض هؤلاء عن ان يكونوا مجرد متفيهقين تعمي أبصارهم غشاوة فهم اشبه بالحفافيش ، يُنفقون أيامهم في الاشتغال بصغائر النحو والصرف ، فقد انغمس آخرون في دراسة قضايا الحياة الكبرى التي واجهتها أثينا وروما حتى لأصبحوا يأنسون بالحياة في ذلك العصر الدفين اكثر من أنسهم بعصرهم الذي فيه يعيشون .

الثقافة الجديدة تفتن كبار رجال الكنيسة وتنتشر بين الطبقات جميعاً

ولم يكد القرن الخامس عشر ينتصف حتى كانت الثقافة الفكرية الجديدة ، المبنيّة على التراث القديم ، قد فتنت العالم المثقف كله في إيطالية . ولم تقتصر الخاسة لدراسة الثقافة الجديدة على المدنيين من رجال الحكومة أو التجار فحسب ، بل عدتهم الى عددٍ من رجال الكنيسة وأصحاب المراتب العليا منهم بخاصة . أما الذين لم يتم لهم ، من بين رجال الكنيسة الكبار ، حظ من الدراسة يصبحون معه علماء فقد قاموا بدور النصراء والهواة للعلوم والآداب والفنون ، ليشاركوا في النقاش حول الفلسفة الرواقية والفلسفة الافلاطونية وغيرهما من ألوان الفكر اليوناني ، في تسامحٍ كثير ومتعةٍ بالغة . وهكذا أفسحت النزعة

اللادينية التي اتسم بها العصر الوسيط الجاهل ، شيئاً بعد شيء ، لروح النهضة الدينية الواضحة ، واتخذ التأكيد البهيج على هذه الحياة سبيله الى طبقات المجتمع كافة .

انتشار العواطف الوثنية

وسنفصّل الكلام بعد على هذا المزاج الجذّل المميّز هذه الحقبة وعلى صداه السعيد في الروائع الفنية . ولكنْ يجب ان لا نخطيء ، الآن ، النظر في ظاهرة مشؤومة رادفت التحرر العقلي . ذلك ان استغراق « الانسانيين » المتواصل في العالم الوثني كان خليقاً بأن يجعلهم ، في نهاية المطاف ، غرباء عن المسيحية أو يكادون . وليس من شك في ان بترارك كان في نجوة من هذا لما قد عصمته صلته الوثيقة بالعصر الوسيط من أن يفقد الأجلال الصادق لعقيدة الآباء وايمانهم . ولكنْ بعد مائة سنة من دراسة شيشرون وسنِكا وافلاطون وافلوطين اخذ هذا الأيمان يبدو أضعف مما كان ، ليكون من نتيجة ذلك أن انصاب جمهرة « الانسانيين » بالشك في الدين . إلا انهم وان انفصلوا داخلياً عن موروث عقائدهم واصبحوا وثنيين ، قليلاً أو كثيراً ، في استشرافهم للحياة لم يقصدوا الى إثارة الصخب غير المناسب في ما يتعلق بذلك كله . أما الكنيسة ، وفي أعلى مراتبها رجال كانوا هم انفسهم مقبلين على الثقافة الحديثة ، مفارقين لعمود التقاليد ، فقد اظهرت تسامحاً بعيداً

وتجنبت بكثير من الحذر أن تحمل « الانسانيين » على مخاصمتها في وضح النهار .

الخطر على الكنيسة من النزعة الوثنية عند كبار رجال الكنيسة الايطاليين

والواقع أن الحالة التي لزمت عن هذا البعث في إيطالية كانت تنذر ، من وجهة النظر الدينية الخالصة ، بأعظم الأخطار . لأننا اذا سلمنا بأن الكنيسة كانت في ظل باباوات القرن الخامس عشر الذين أقبلوا صراحةً على مسرات الحياة ومفاتنها أشبه ما تكون بقصر فخم لا يقل أبهة وترفاً عن اقصى ما عرفه القُدامى ، فطبيعي ان يشك الناس في ما اذا كانت هذه الكنيسة لاتزال هي بيت المسيح الذي تتصدر ، باسمه ، لانتزاع احترام العالم المسيحي ، وخضوعه . واذا جاز أن لا يكون لهذا الوضع الشاذ المتناقض أثر الصدمة العنيفة في نفوس الايطاليين المستغرقين في حماستهم الوثنية ، فلم يكن من غير الجائز ان يهب شعبٌ آخر ، لم يتأثر بعدُ بوثنية الثقافة الجديدة ، للاحتجاج على ما تراءى له فضيحةً في الأسرة النصرانية لا يمكن الاغضاء عنها او التسامح بها .

« ج » — الأدب والفنون الجميلة

النهضة تساعد على نشوء الآداب القومية

ليس عجيباً ، بعد ان اتخذ الناس إبان عصر النهضة

موقفاً جديـــداً من مشكلات الحياة ، أن تبرز الآداب والفنون ، وهي مَنفذٌ لكل ما يحرك القلب الانساني ، الى الميدان في الوقت المناسب . فلننظرْ أولاً في حركة الآداب .

ففي ايطالية ، وفي كل بلد من اوروبـة ، ظهر ادباء اثارت نفوسهم حتى الاعماق رعشة الحياة المنتعشة بعد ذبول ، فأحسوا ان عندهم شيئاً خليقاً بان ينقلوه الى الناس . ومع ان بعض الكتاب التزموا اصطناع اللاتينية ، وهي حتى ذلك الحين وسيلة الطبقات المثقفة الى الدراسة والتأليف ، فان آخرين ، والشعراء بخاصة ، اقتنعوا بان من العسير عليهم ان يعبروا عن خلجات قلوبهم تعبيراً صحيحاً بغـير اللسان القومي المألوف . وبذلك تمت للغـات الاوروبية القومية ، من فرنسية وايطالية واسبانية وانكليزية وألمانية ، مكانـــة ادبية غير منازعة ، في حين ان آداب هذه اللغات ، وان تكن قد اخذت بالازدهار في العصر الوسيط ، اصلتها بالشعر الملحمي الذي عني به النبلاء ، بلغت من النمو مبلغاً كفل لها الحياة الدائمة . وهنا لا بد من تحفظ . فنحن إذا نظرنا الى هذه اللغات من ذلك الوجه الذي كان لها عصر النهضة لن نخطيء امراً ، وهو ان طابع التجربة كان بيّناً فيهـــا ما يزال . لقد اخذت سبيلها الى البقاء حقاً ، ولكنها لم تكن بعدُ على تمام الثقة من هذه الحقيقة . ومن هنا جاز ان نرى الأدب الايطالي الذي تاه على العالم ، طوال القرن الرابع عشر ، بالثلاثة الفلورنسيين الخالدين ، **دانتي وبتراوك**

وبوكاتشيو ، يسقط في القرن الخامس عشر عن مكانته ، ويقلّ خطره نسبياً . وبينما كانت أقمار ايطالية الفلورنسية تتألق في منازلها انجبت انكلترة « **تشوسر** » Chaucer (١٣٤٠ – ١٤٠٠) الذي اخرج للناس « **حكايات كانتربوري** » Canterbury Tales المبهجة ليقضي ، كالمثلث الايطالي ، دون أن يكون له وريث في امارة الشعر . أما فرنسة فقد نعمت في ذلك العهد بـ « **فرواسار** » Froissart (١٣٣٧ – ١٤١٠) أحد كتاب النثر التاريخي الاكثر حيوية وامتاعاً في جميع الاعصار ، واستمعت بعد زمان ليس بطويل الى الالحان الطبيعية النافذة الى قرارات النفوس يوقعها الشاعر « **فيّون** » Villion (١٤٣١ – ١٤٨٤) طفل المدينة واحيائها الوضيعة القذرة . وتلك جميعاً اسماء كبيرة ، ولكنها اسماء يوقع نتاجها المتفرق المبعثر ، في نفوس قارئيه ، ان الحركة الادبية باللغات الاوروبية القومية ما تزال غضة الجناح لا يكاد ينهض بها ريشها الذي لم يبلغ تمامه بعد .

الفنون الجميلة في العصر الوسيط تبدع الطراز القوطي

ومهما يكن من امر فأن مزاج النهضة لم يجد تعبيره الاكمل في الآداب . ولما كان ذلك من نصيب الفنون الجميلة التي استبدت ايطالية بمقام الزعامة فيها اقوى مايكون الاستبداد بحيث نجيز لانفسنا ، بسبب من ضيق المقام ، ان نجتزيء ههنا بكلمة في الحركة الفنية عند الايطاليين .

إن الفنون الجميلة جميعاً انما تقوم بعبء التعبير — في حدود وسائلها التي تصطنع ، وبدافع من الخيال المبدع — عن امانيّ مجتمع ما ومثله العليا . وبكلمة ثانية : بينما تخدم العمارة والنحت والتصوير ، دائماً ، اغراضاً خاصة تجتهد في ادائها افضل الاداء بمادتها المقومة لها من حجارة او خشب او اصباغ ، فانها تكون في بعض الاحيان جميلةً ومؤثرةً بقدر ما تبلغه من تجسيد لألوان الاهواء والمطامح ، في زمانها ، وفي كل زمان . والحق ان المدينيين ما كادوا يأخذون انفسهم ، منذ القرن الحادي عشر ، ببنـــاء ذلك الشيء الجديد ، المدينة ، حتى اخرجوا فنّ العمارة الى النور ، ليكون طبيعياً ان ينفخ هذا الفن ، بدوره ، روح الحياة في كل من النحت والتصوير . ولما كان ذلك كله قـــد تمّ والكنيسة ما تزال تتمتع بسلطانها المطلق ، فقد جاءت الفنون الرفيعة ، في طورها الوسيط الخالص ، مسيحية الروح حتى الاعماق . ومؤرخو الفن يطلقون على الفنون الجميلة في العصر الوسيط صفة **القوطية** Ghothic ، ولعلهم لم يحسنوا اختيار الصفة احسانا كبيراً (إذ ما علاقة القوط بالفن الوسيط ؟) ولكنها تؤدي الغرض احسن الاداء اذا اتفقنا على انهـــا لا تفيد شيئا اكثر من ان الكنائس والتماثيل والصور الفنية الوسيطة صدرت عن روح خاص ، وانهـــا تفصح عن نغم ديني متماثل . وبكلمة موجزة ، ان «القوطيّ» لفظ اصطلاحي خالص يُرمز به الى طراز العصر الوسيط المسيحيّ .

حتى اذا بزغ فجر النهضة واخذت المدينة تطّرح قيود الكنيسة ، بعد ان وقفت نفسها على الغايات الدنيوية ووصلت ابتغاءَ ذلك ما كان قد انقطع بينها وبين التمدّن القديم ، هجر الطراز القوطيّ شيئاً بعد شيء ، فقامت على أنقاضه طريقة جديدة في التعبير الفني تتفق ومقتضيات العصر الجديد . وليس من شك في ان هذا الطراز ، كسابقه القوطيّ ، استقرّ خلال اجيالٍ متعاقبة على حالٍ بعينها لم تتغير . واهل الفن يميزون على الاقل بين ثلاثة اطوار مر فيها هذا الطراز : طور النهضة الأول ، وطور النهضة الأوسط ، وطور النهضة المتأخر ، وهي تستغرق جميعاً الفترة الممتدة من حوالى سنة ١٤٠٠ الى ١٥٥٠ بل الى ١٦٠٠ م . وإذ كنا لا نقصد هنا الى أبعد من مجرد الألمام بهذه الحركة الزاهرة فسوف نجتزيء بوصف الفن كما كان في عصر النهضة جملة وبالتنويه ببعض الفنانين العظام الذين برّزوا على الاقران في ميادين العمارة والنحت والتصوير .

التعريف بطراز النهضة

إذا اتفقنا على ان النزعة القوطية ظلت توجه عمل الفنانين الايطاليين حتى سنة ١٤٠٠ أو ما حولها ، فنحن خليقون بأن نفهم الأحوال التي ساعدت على صياغة الطراز الجديد . وتفصيل ذلك أن هؤلاء الفنانين تطلعوا – بعد سنة ١٤٠٠

بقليل ، وبعد ان لفت « الانسانيون » الانتباه الى يونان وروما – إلى آثار القدامى الفنية بمثل الشوق الذي سبق ان اظهره العلماء الى تراثهم العلمي والأدبي . بيد أنهم أردفوا هذه الحماسة المضطرمة للجديد بازدراء ظالم اكثر ما يكون الظلم للاشكال التي تمتعت بالغلبة والسيادة دهراً طويلاً . وهكذا أصبح الفن القوطي "منكراً" يتحاشاه الفنانون بعد أن تهافتوا ، بحرارة اشبه بتلك التي تنقد في صدر المؤمن المستجد ، على الاعمدة الكورنثية * وطرائق التوكيد الزخرفية ، وصناعة التماثيل الرخامية التي ابدعها العصر القديم . وفي إيطالية تقوم الى اليوم آثار معمارية ونحتية لا تزال في حالٍ سليمة الى حد بعيد او قريب . حتى اذا التفتنا بصورة اخص الى المعماريين ، اولئك الذين ثملت ابصارهم فجاءة بجمال الخرائب القديمة التي تطاول إهمالها وجدناهم في شغل شاغلٍ من مسألة عملية يحاولون حلها وتتلخص في الكلمات التالية : ما السبيل الى تكييف الاشكال الرئيسية التي عرفها الفن القديم وفق الحاجات القائمة في المجتمع الذي يعيشون فيه ؟ إن المدينة التي ازدهرت عصرَ النهضة لم تقتض اصحابها ،

---

* نسبة الى كورنث Corinth وهي مدينة في يونان القديمة عرفت باغراقها في الترف والخلاعة وبطراز اعمدتها الذي يعتبر اجمل الطرز المعمارية الكلاسيكية بالاشراق والزخرف . ويمتاز هذا الطراز بتيجان اعمدته الجميلة المزخرفة باوراق نبات الـ acanthus العريضة ، الخادة الرؤوس . ومن اشهر نماذج هذا الطراز هيكل الباثيون في رومة . [المعرب]

كما اقتضت رومة القديمة اصحابها ، مسارح مدرّجة وحمامات وهياكل . ولكنها اقتضتهم كاتدرائيات وقاعات بلدية ودور نقابات ، في حينما لم تنهض الحقبة القوطية بسدّ الحاجة الى ذلك . وبتعاظم ثروة المدن والمدينيين نشأت حاجة جديدة بعض الشيء الى كنائس الابرشيات والكنائس الخصوصية ، وفوق كل شيء ، الى القصور والدارات villas . فاذا أضفنا الى هذا ان الفنانين ، وبخاصة النحاتين والمصورين ، خرجوا على التقليد الوسيط القائل بأن الطبيعة مملكة الشيطان ، ليقرعوا أبوابها ملتمسين الراحة والدفء في مطارحها العريضة ، تكشفت لنا الاحوال التي لابست مولد الطراز الجديد . وإنما نخلص الآن الى تحديد هذا الطراز من عناصره فنقص بأيجاز على انه يمثل بعثاً للاشكال الكلاسيكية أولاً ، وانه استلهم نضارة الطبيعة ثانياً ، وانه اخذ نفسه أخيراً بخدمة أغراض الجماعات النشيطة المتصدرة لمحل السلطة عن طريق التجارة والصناعة والتعبير عن نظرتها الجديدة الى الحياة ، وإن لم يتحرر في الوقت نفسه تحرراً كاملاً من الدين والكنيسة .

فن العمارة : برونلسكو ومايكل أنجلو

ونبدأ بفن العمارة لنحيي في **برونلسكو** Brunellesco (١٣٧٧ – ١٤٤٦) رائدَ روح النهضة . وليس من شك في أن الاثر الأكبر لبرونلسكو ، الذي حقق فيه المبدأ

الكلاسيكي القائل بالجمع ما بين الضخامة والبساطة ، هو القبة التي توّج بها كاتدرائية فلورنسة مسقط رأسه . وإن مِثْلَ كنيسة سان لورانزا ، في فلورنسة ايضاً ، لتُعْلن عن عزمه على اطراح قواعد الاعمدة الضخمة المقوّمة لبناء الكنيسة القوطية ، والاستعاضة عنها بنظام الأعمدة الاكثر لطافة ورشاقة ، الذي اصطنعه المعماريون الرومان . وقد اتّبع طريقة برونلسكو هذه غيرُ جيلٍ من المبدعين ، فعملوا على إحكامها وتجويدها مرّصعين أجياد المدن الايطالية بعقود من الصروح الأنيقة المشيدة على طراز النهضة ، والتي لا تزال تثير إعجاب الزائرين . ولعلّ كنيسة القديس بطرس * ، في رومة ، تقع من هذه كلها في مكان الطليعة من حيث قيمتها التاريخية والطرازية جميعاً . والواقع أن عدداً من اعاظم معماريّي شبه الجزيرة الايطالية نهضوا ، في اوقات مختلفة ، بعبء إنشاء هذا الأثر خلال القرن السادس عشر كله . ولكنّ اسم الفنان الفلورنسي **ميكال آنجلو** Michael Angelo (١٤٧٥ – ١٥٦٤) هو أبعد هذه الاسماء المتصلة بالمشروع صوتاً وشهرةً . وليس من شك في ان القبة الضاربة في الأجواء حتى لتمكنُ رؤيتها من مدى بعيد ، والتي فاق ميكال آنجلو بها قبة ابن مدينته ، برونلسكو ، لمتشامخة إنما تُعدّ مفخرةً من مفاخر الفن في جميع العصور .

---

* هي كاتدرائية البابا واكبر هياكل الدنيا ، وتنبسط على مساحة تبلغ مائتين وأربعين الفاً من الأقدام المربعة . [المعرب]

نظائر القصور الخاصة والدارات الريفية

ومهما كان ، فأن آثار العصر الفنية الخاصة كانت ، من وجوه عدة ، اكثر إمتاعاً واشدّ تنوّعاً من الصروح الدينية . لقد كان عصراً تصدّر فيه للقيادة جماعة من الطغاة العسكريين وامراء التجارة التواقين الى تخليد ذواتهم وأسرهم في آثار باقية . ففي فلورنسة ، شيد اصحاب المصارف الناجحون من مثل **آل مديتشي** Medici **وآل ستروتزي** Strozzi **وآل بتّي** Pitti صروحاً ضخمة لم يتأثر طابعها العبوس الأشبه بالقلاع ، على الطريقة الوسيطة ، برقة الاحاسيس الجديدة إلا قليلاً . في حين قامت في البندقية — الثغر الذي خيم فيه الامن الشامل واصبحت فيه فكرة القلعة كبيت تنزله الاسرة غريبةً عن روح العصر — دورٌ للتجار تزهو بأروقتها الطلقة الجميلة ذات الاقواس المتراكبة ، وبرخامها المختلف الالوان الذي تنعكس ظلاله في رفق ولين على المياه المائسة في القنوات . ولكنّ وقوف فلورنسة والبندقية في مقدمة المدن الايطالية ، من هذه الناحية ، لا يعني ان رومة ، وپادوا ، وبولونيا Bologna ، وسينا Siena وعشرات غيرها قد تخلفت بعيداً في المضمار . لقد تغير وجهها المعماريّ ايضاً . وإذْ قد تباهت كلٌ من هذه المدن بشخصيتها المميزة فقد جاءت مبانيها ، هـــذا العهد ، نغماً فردياً مستقلا في سيمفونية فن العمارة الايطالية الغنية الالحان .

فن النحت : دوناتلو وميكال آنجلو

ونحن واجدون في شخص الفلورنسي **دوناتلو** Donatello (١٣٨٣ — ١٤٦٦) صديق برونلسكو ومعاصره ، الفنان الذي دشن نتاج النهضة في فن النحت . واذا كانت بعض آثاره العارضة ذات الطابع الديني ، كمثل تمثاله المعروف « القديس جورج » ، تنهض دليلا على انه ما يزال متأثراً بذكريات العصر الوسيط فأن نتاجه العام ، وان يكن قد حظي بمسحة من روح العصر القديم ، هو تعبير واضح صريح ، عن واقعية مخلصة . وليس من شك في ان دوناتلو كان في الاساس تلميذاً من تلاميذ الطبيعة . امـــا معاصره جيبرتي Ghiberti (١٣٧٨ — ١٤٥٥) فهو صاحب بابيْ دار المعمودية الفلورنسية الشهيرين المصنوعين من البرونز . وهما يمثلان ، في نقوش عديدة بارزة بروزاً عاليـــاً ، بعض الاحداث المهمة المصطفاة من حياة المسيح حينا ومن « العهد القديم » حينا آخر . ومن اعاظم الفنانين الفلورنسيين في هـــذا الميدان ايضا **لوقا دالا روبيا** Robbia و **دوزيدريو دا سيتينيانو** Settignano ويحسبنا ان نعلم ان هذه المدرسة الفلورنسية في النحت بلغت ذروتها في شخص **ميكال آنجلو** (١٤٧٥-١٥٦٤) الذي لم يقصرْ نفسه عـــلى فن واحد ، بـل عني بالعمارة والتصوير والشعر ، وإن يكن أملك للازميل منه هـــذه الفنون جميعا . وميكال آنجلو هو احـــد العقول المتعددة

البراعات ، والعباقرة العالميين الذين شعت آثارهم في عصر النهضة وكانت من مقوّماته المميّزة . والواقـــع ان ميكال تنكتّب طريقـة دوناتلّو الطبيعية البسيطة القلب التي اقتنعت ، في سذاجة ، بصور العالم المنظور المباشرة . فأخذ يبحث في إصرار وقسوة عن الحقيقة الكامنة وراء المظاهر . وقد خلق في رائعته « موسى » (في رومة) وفي نقوشه على قبور آل مديتشي في فلورنسة ، عالمـــاً من الرجال الكاملين (السوبرمان) يكاد يُوقع الهول في النفس ويُشعر كلّ جيلٍ من الأحياء الذين عاشوا ، منذ ذلك الحين على ظهر هذا الكوكب ، أنهم مُسخوا الى جنسٍ من الأقزام ..

التصوير في النهضة الممتاز

بيد أن النهضة — مهما يكن تراثها في العمارة والنحت قد بلـــغ من الشأن والرفعة — اصطنعت فنّ التصوير ، بخاصةٍ ، وسيلةً للتعبير عن آمالهـا ومخاوفها . ولعلّ مردّ ذلك الى أن الأصباغ أسلسُ قيـــاداً وأفصح تعبيراً من الحجارة أو الرخام ، والى ان روح العصر القلقة قد استشعرت الراحةَ والأنس ، اكثر ما استشعرتها ، في الآثار المرهَفة القلقة التي تحدثها الخطوط والألوان في نفوس الناظرين .

والواقع أن التصوير انتهى الى ان يكون الفن الايطالي المختار الى درجة اخذت معها كل مدينـةٍ ذات شأن تنجب مصوّريها المحليين الذين ألفوا طبقةً أو مدرسةً ذات طريقةٍ

خاصة بهم ميزةٍ عـن الطرائق الأخرى . وإنما يرجع غنى التصوير الايطالي وتنوّعه اللذان لا ينفدان الى تلك المدارس التي تضيق هذه الصفحات ، من غير شك ، عن إيفائها حقها من العناية . فلنجتزيء من ذلك كله بكلمة في المدرستين اللتين أطلعتهما فلورنسة والبندقية .

التصوير الفلورنسي من ماساشيو الى بوتيشيلي

أسّس جيوّتو Giotto (١٢٦٦ — ١٣٣٧) المدرسة الفلورنسية في التصوير ، في عهدٍ كانت الاحاسيس القوطية ما تزال أغلب عليه . ومع ان جيوتو معدودٌ ، بحقّ ، واحداً من أعاظم الفنانين في جميع العصور فأن آثارهُ ذات الروح الوسيط لم تعد تروق للجيل الذي كان يهيم بآثار برونلسكو ودوناتلو والذي احدث حضارة عصر النهضة . واذن فقد خضع فن التصوير ، منذ اول القرن الخامس عشر ، لتلك الروح نفسها التي دفعت من قبلُ فنّ العمارة وفنّ النحت نحو تعبير غضٍّ جديد . وكان أسبق المصورين الى سلوك هذه الطريق **ماساشيو** Masaccio (١٤٠١ — ١٤٢٨ ؟) وهو واقعيّ عنيف ، على ما تشهد صُوَرهُ المرقومة على جدران كنيسة برانكاتشي والقائمة حتى اليوم . ثم إن **باولو أوتشلو** Uccllo **وفرا فيليبو لبي** Lippi **وبوتيشيلي** Botticelli وكثيرين آخرين اخذوا عنه هذا اللون الواقعي ليعدّلوا فيه تعديلاً رفيقاً كلٌ حسب مزاجه الشخصي . وما

يزال أهل الفن يرون في بوتيشيلي تعبيراً ذاتياً نادراً أعجز الناسَ فهمُ مضامينه الصوفية ، منذ كان حتى يومنا هذا .

ميكال آنجلو وليوناردو دافنشي

وآتت المدرسة الفلورنسية أُكلها في شخصي ميكال آنجلو (١٤٧٥ – ١٥٦٤) وليوناردو دافنشي Leonardo da Vinci (١٤٥٢ – ١٥١٩) أمّا في ما يتصل بميكال آنجلو فيمكن القول إنه – برغم اصطناعه التصوير على غير رضاً منه – نزولاً عند أمر البابا الصارم – حقق في صوره التي تمثل الخليقة والتي رُسمت على سقف كنيسة سستين في رومة ، رائعةً فنية خفقت لها افئدة كل جيل من أجيال الناس ، منذ عهده . وكان ليوناردو دافنشي ، كزميله ميكال آنجلو ، عبقرياً جامعاً زاول النحت بالاضافة الى التصوير ، وأُولع بالتجارب العلمية ، وكان مهندساً ومخترعاً في وقتٍ معاً . واذا كان ميكال آنجلو نحاتاً قبل كل شيء ، فقد كان ليوناردو قبل كل شيء ، وفوق كل شيء ، مصوراً . ومن أسفٍ ان يكون الزمان قد أخنى على بعض آثاره العظمى من مثل **العشاء الأخير** في ميلانو ، **والمونا ليزا** Mona Lisa في باريس ، حتى لكاد يُتلفها بسببٍ من تعجله اصطناع بعض المستحدثات التقنية technical على ما يظهر .

الفريسكو والتصوير الزيتي

ولعلّ من الخير ان نقول هنا كلمة في الطرائق التقنية

المتصلة بفنّ التصوير . ففي زمن جيوتو ولعدة اجيال بعده آثر الفنانون الفلورنسيون ، على الجملة ، اصطناع ما يُعرف بطريقة الفريسكو fresco method ، وهي اسلوب من التصوير على الجدران تصويراً ضخماً واسع الجنبات . هنا كان على الفنان أن يستخدم أصباغه في الجص الرطب ، ليتحد الجص والصبغ ، بعد جفافهما ، في كتلة لا يتطرق اللبس الى وحدتها . ولكن الفنانين ما لبثوا ان هجروا فن الفريسكو هجراناً تدريجياً ، بسبب من قلة ثباته المثبطة ، في الدرجة الاولى ، واخذوا بأسباب التصوير على لوحاتٍ او قطع من القماش مُعدةٍ خصيصاً لهذا الغرض ، بأصباغ غنيـــة تستمد قوتها من امتزاجها بالزيت . وقد تمت الغلبة لهذا الاسلوب الفني الفائق الأحكام ، والمعروف بالتصوير الزيتي ، تدريجياً ، فاصطنعه ليوناردو ايضاً . إلا انه ، وهو المولع بالاختبار العلمي ، جرّب وسائل اخرى الى جانب الزيت فكان من ذلك ما قدمنا القول فيه من نتيجة فاجعة .

رفائيل

ومن متأخري المصورين الذين اصطنعوا الفريسكو ، في نجاح باهر ، الفنـان رفائيل Raphael (١٤٨٣ — ١٥٢٠) الذي رفعه ابداعه في تمثيل الموضوعات اللاهوتية والفلسفية والشعرية تمثيلًا رمزياً في غرف البابا الخصوصية بقصر الفاتيكان بالأضافة الى لوحاته الزيتية العديدة ، الى قمة حركة النهضة .

ليس هذا فحسب ، بل ان ما تم لرفائيل من السمو الروحي والتناغم الصارخ اللذين يأخذان بمجامع القلوب ، على امعانهما في السهولة واليسر ، قد جعلاه المصور الاحب الى الفؤاد في جميع العصور ايضاً . ويحسن هنا ان لا نغفل عن الملاحظة انه وهو ابن اوربينو ، Urbino ، المدينة الجبلية، ينتمي الى المدرسة الأمبريانية Umbrian لا المدرسة الفلورنسية . وإن في انزالنا إياه في محل رفيع من هذه العجالة لما يؤكد في أذهاننا هذه الحقيقة ، وهي ان المركزين العظيمين، فلورنسة والبندقية ، لم يحكرا بأي حال العبقرية الفنية .

التصوير البندقي : تيتيان

لم تكن مدينة البندقية تنعم ، في ذلك الوقت بالأمن الشامل وبحكومة مستقرة استقراراً غير مألوف فحسب ، بل انها وقد استوت على بحرٍ فضيّ ، وتحت سماء زرقاء نيرة ، كانت وما تزال مغنى من اجمل المغاني وأدعاها الى الفتنة في هذه الارض . وطبيعي ان تنعكس هذه الاحوال الاجتماعية والطبيعية السعيدة في آثارها التصويرية التي نعمت، وهي المنبثقة من نشاط النهضة الغض ، بحيوية في اللون وبسحرٍ لم يعرف الفن ضريباً لهما من قبلُ ومن بعدُ . ولما كان من العبث ان نستعرض ههنا جريدةً بالنجوم الفينيسية اللامعة ، نرانا مضطرين الى الاكتفاء بذكر الفنانين الذين أشرفوا على الغاية من العمل الفني . واولئك هم **جيورجيوني**

Giorgione وتيتيان Titian ، وتينتوريتو Tintoretto وبول فيرونيز Veronese . ولكن تيتيان (١٤٧٧–١٥٧٦) يبزهم جميعاً من حيث هو تجسيدٌ للأغراض الفينيسية الأصيلة . ان نتاجه الفني (سواء أكان صوراً لأشخاص — وقد اخرج كثيراً من ذلك لما كان من رغبة مشاهير الناس لعهده في ان يرسمهم بريشته — او صوراً لمذابح الكنائس الزاهية القائمة على ضفاف القنوات) لم يعد يحمل اثراً من آثار الأقليمية والتقوى الوسيطتين . خذ مثلا تلك اللوحة الزاهية في المجمع البندقي والموسومة بتقديم العذراء الى الهيكل ، لا تقع فيها على أيما عملٍ او اشارة ذات طابع مسيحي خالص بل تجد موكباً من اعيان الرجال يتحرك في جلال ويخطر في حلل نفيسة مترفة لا توحي صورة الاسرة المقدسة بقدر ما توحي صورة امراء التجار الذين في ظلهم أنشأ تيتيان ورجال مدرسته فنهم المهذب الارستوقراطي ذا النزعة الدنيوية الصريحة .

« د » ـ العلم الطبيعي والاختراع

العلم الوسيط لا يعدو التنجيم والكيمياء القديمة

ليس عجيباً أن نهمل العلوم الطبيعية في العصر الوسيط ، وهو الذي نظر الى هذه الارض نظرة احتقار بوصفها وادياً للدموع ، وعلّم أن أسعد ساعات العمر هي تلك التي يغادر فيها المرء دنيا التراب هذه . وكان العوام يؤمنون

بان الطبيعة مسكونة بارواح وعفاريت وشياطين من الحكمة استرضاؤها واستعطافها ، بل ان الطبقات العليا نفسها كانت في الاعم الاغلب أسيرة لخرافات مشابهة . وليس من المعقول في مثل هذه الاحوال ان ينشأ ايما درس عاقل او نظامي لبيئة الانسان الطبيعية . ومن هنا تمثلت اقرب المحاولات الى البحث العلمي – بالمعنى الذي نفهمه اليوم من هذا التعبير – في العلمين الدجليين التنجيم والكيمياء القديمة alchemy . أما التنجيم الذي اقترن في الواقع بشيء من النظر في السماء وملاحظة افلاكها فمدين بشعبيته المذهلة الى الاعتقاد الخادع بان مقدرات الانسان انما تقررها النجوم ؛ في حين أن اصحاب الكيمياء القديمة التي شجعت دون ريب قدراً ضئيلا من التجريب العلمي كان يحدوهم أمل خلاب في ان يحققوا ثروات اسطورية من طريق تحويل المعادن الدنيا الى ذهب . ونحن مع اعترافنا بان التنجيم والكيمياء القديمة كانا رائدين لعلمي الفلك والكيمياء الحقيقيين لا نستطيع بسبب من الفرضيات غير المعقولة التي قاما عليها ، وبسبب من عدم وجود طريقة نقدية تقوّمها ان نقول بانهما ساهما كثيراً في تعريفنا بالانسان وبالعالم الذي يعيش فيه تعريفاً دقيقاً مفيداً .

التقدم البطيء في الملاحظة العلمية : الطب

وباستهلال عصر النهضة ، اخذ الموقف السلبي من الحياة

الذي روجت له المسيحية الوسيطة ينكص على عقبيه في وجه إيجابية سعيدة قادت بصورة لا شعورية الى ملاحظة اكثر دقة لمظاهر الطبيعة وطرائقها في العمل . وقد ساعد المؤثر الفكري الذي انطوت عليه النزعة « الانسانية » على بلوغ الغاية نفسها لأن انبعاث الثقافة الكلاسيكية رافقه انبعاث العلم الاغريقي ، وبخاصة في حقول الفيزياء والفلك والطب والرياضيات . فكان من اثر ذلك أن اخذت روح علمية جديدة تسود ببطء كثير ، في بعض الجامعات ، وفي بادوا Padua خصوصاً . ولكنها لم تستطع ان تنعم بانتصارات ذات شأن إلا في مطلع القرن السادس عشر ، وان تكن هذه الانتصارات قد اقتصرت على ميدان الطب حقبة طويلة من الزمان . فقد كان تقدماً قيماً ان تُشاد دراساتٌ كعلم التشريح وعلم الفيسيولوجيا على قواعد تجريبية واضحة من طريق إعمال المبضع في الاجساد الميتة . أما اعظم اطباء بادوا فعالمٌ فلمنكيّ * الاصل هو **الدكتور فيزاليوس** Vesalius . ففي سنة ١٥٤٣ نشر هذا الطبيب رسالةً في التشريح دعاها *Fabrica Corporis Humani* تصدّرَ فيها مقالة جريئة قوامها ان من الضروريّ أن تخضع للنقد كل مصدرٍ قديمٍ ، حتى الاغريق الذين يوحون أعمق الاعجاب والاحترام ، ليكون رائدَنا اختبارُ الحقائق ، لا رائدَ غيره .

* اي بلجيكي ، من اهل الفلاندر بخاصة ، يتكلم اللغة الفلمنكية . [المعرب]

ولكن لما كان الطبّ لم يتخذ على اية حال وجهةً جديدة متميزة إلا حوالى عام ١٥٠٠ فلا لوم علينا في ان نضع علمي الجغرافية والفلك المتصل احدهما بالآخر في مقدمة الدراسات التي آتت قبل غيرها ثمراتٍ جديدة . والحق ان التحجر العلميّ الوسيط انما زُعزع أول ما زُعزع بفضل ظهور المعرفة الجغرافية الجديدة التي نشأت ، في بساطة بالغة كحصيلةٍ ثانية by - product للرحلات التي قام بها التجار في البرّ والبحر ابتغاء البحث عن اسواقٍ لبضائعهم . ومنذ ان اصبحت رقعة البحر المتوسط مألوفة الى حد لا بأس به اخذ الناس بأسباب السفر والرحلة بدافع المغامرة حيناً ، واستجابةً لشهوة الربح حيناً . فمنذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر قام الرحالة البندقي الشهير **ماركو بولو** * Marco Polo برحلة برية الى الصين ليدوّن لنا مغامراته في كتابٍ ما يزال يُذكي خيال القراء الى اليوم . ولم يمض وقت طويل حتى تجسدت المعارف الجديدة المتفرقة في مصورات وضعها راسمون اخذوا انفسهم بأرواء ظمأ الأنسان المتعاظم الى المعرفة بقَدْر ما اعتبروا حاجات التجار ورؤساء الملاّحين العملية . ثم إن جغرافية الأغريق القدماء وفلكهم انتهيا ، باشتداد حركة الأحياء ، الى ان يُصبحا

---

* ١٢٥٤ ـ ١٣٢٣ [المعرب]

في متناول الباحثين ، في القرن الخامس عشر . وكان آخر الفلكيين الاسكندرانيين العظام هو **بطليموس** Ptolemy الذي عاش في القرن الثاني للمسيح والذي لم ينصّ على كروية الأرض فحسب ، بل حسَبَ محيطها حساباً يقارب الرقم الحقيقي مقاربةً تبعث على الدهشة . وإذا كان « الانسانيون » في شوق الى التقاط كلّ ما على المائدة الاغريقية من فتات ، فانهم لم يتباطأوا في اطراح المعتقد الوسيط الشائع الذي يذهب الى ان الارض منبسطة ، ليأخذوا بالنظرية البطليموسية الاكثر وثوقاً . وإذن فقد تبدّل وجه الجغرافية العالمية في القرن الخامس عشر : فالى المعلومات الجديدة الغزيرة التي تتصل بأوروبة وإفريقية وآسية ، أُضيفت حسناتٌ أخرى تتمثل في مصورات أصح وخرائط ملاحية أوفى ، وفي الفرضية البطليموسية ومضامينها التي تثير الفكرة في الرؤوس . فاذا أردفنا هذا كله بالاشارة الى المكاسب المغرية التي لوحت بها التجارة الشرقية للناس استطعنا ان نفهم كيف أصيب الانسان بحمى الاستكشاف الغريبة التي أذكتها أقاصيص المخاطرة ، وحب المعرفة ، والجشع الدنيء ، والتي لم تنطفيء جذوتها إلا بعد أن نشر الانسان لواءه في أقطار الارض جميعاً .

علم الفلك الجديد : كوبرنيكوس

ولسوف تكون لنا ، في الصفحات التوالي ، عودة الى

رحلات الاستكشاف نوسع فيها الكلام عليها . اما ههنا فيجدر بنا ان نشير الى ان الجغرافية الجديدة قادت بصورة منطقية الى عـــلم الفلك الجديد المتصل باسم **كوبرنيكوس** Copernicus الشهير (١٤٧٣ – ١٥٤٣) . وقـــد وُلدَ كوبرنيكوس هذا في مدينة ثورن Thorn على نهر الفيستولا ، وقضى عشراً من سنيه الرخصة في إيطالية حيث تلقف ، في حماسة وشوق ، الافكار الجديدة التي كانت شائعة في شبه الجزيرة شيوعاً بعيداً . وهو وإنْ يكن قـد أعجب بفلك بطليموس الذي يُقيم في وسط الكون أرضاً كروية ساكنة تدور حولها الاجرام السماوية جميعاً فقد داخله الشك في بعض نظرياته المقررة تقريراً يعلو على المناقشة ، فوضع بعد سنوات من الدروس فرضيّته الخاصة القائلة بأن الارض والسيارات الاخرى إنما تدور حول الشمس ، وان للارض بالاضافة الى هذه الحركة دورةً كل اربع وعشرين ساعةً ، حول محورها .

فلك كوبرنيكوس يحرك راكد العلم

وبسببٍ من ذيوع النظرية البطليموسية التي تقول بمركزية الارض والتي اخذت بها الكنيسة فمكنت لهذا الذيوع عملياً وفرضته على الناس ، تردد كوبرنيكوس طويلًا قبل أن يُعلن ما ذهب اليه من ان الشمس هي المركز الذي تدور حوله السيارات . وهو ما يفسر لنا كيف جاز ان لا تُطبع رسالته الفلكية العظيمة إلا في العام الذي توفي فيه (١٥٤٣)

بيد ان هذه الرسالة لم تسترع النظر بادىء الرأي ، فكان من اثر ذلك ان مادتها لم تأخذ سبيلها الى الوعي الاوروبي إلا في بطء كثير . وايا ما كان فان هذه الفرضية الجديدة ما لبثت ان غزت العقول المفكرة فلم تقلب الصورة العامة للكون رأساً على عقب فحسب ، بل ساعدت بشكل حاسم على إقامة العلوم الطبيعية على قواعد مكينة بما قد نشرت من اعتقاد يذهب الى ان المعرفة الحديثة ينبغي ان تبدأ — على عكس المعرفة الوسيطة — بتحدي التقليد ، والتقدم من ذلك الى دراسة النتائج الجديدة التي تلزم عن الملاحظة الشخصية .

العصر الوسيط ليس عاطلا من الاختراع

واذا كان العصر الوسيط قد أهمل العلم الطبيعي إهمالاً واضحاً فليس معنى ذلك أنه لم يعرف نشاطاً ما في حقل الاختراع . والواقع ان الاختراع يُذكيه الاكتشاف العلمي إذكاء شديداً ، على ما يشهد عصرنا بوضوح ، ولكنه لا يعتمد عليه كل الاعتماد . فنحن نعرف ان بعض المخترعات التي لم يحقق الانسان في جميع العصور ما يدانيها شأناً وقدراً إنما انبثقت عن حذقه الفطري ليس غير . وحتى في العصر الوسيط المتبلد نسبياً ، نجد الناس لا يكادون يواجهون في ميدان مصالحهم المباشرة مشكلات عسيرة مقلقة حتى يحلوها أو يحاولوا أن يحلوها حلاً مرضياً . وهكذا كان لما أذكاه

القداس الكنسي من حبّ للموسيقى أثرٌ في المغنين ، فاخترعوا سلّماً موسيقياً كان لنا منه ، بعد أن جُوّد في مراحلَ من التطوّر ، السلّمُ الذي لا نزال نستعمله الى اليوم . وحين وجدَ ملاّحو البحر المتوسط أن من العسير عليهم ان يتابعوا السير بمجرد اختفاء البرّ عن أعينهم اخترعوا الابرة المغناطيسية أو اقتبسوها عن العرب الذين استعاروها بدورهم من الصينيين . اما مصورو العصر الوسيط فقد حلّوا مصاعبهم أول الأمر بطريقة الفريسكو ، كما رأينا ، حتى اذا أثبتت هذه الطريقة عدم كفايتها فزعوا الى الزيت والقماش .

البارود يقضي على الميزة العسكرية التي كانه النبلاء يتمتعون بها

وعندما تضاعفت المشكلات ذات الصبغة التقنية في عصر النهضة تضاعفت كذلك المخترعاتُ التي تمثّل حلولاً تختلف كمالاً ونقصاً لهذه المشكلات . من هذه المخترعات اثنان كان لهما آثار بعيدة المدى تبرّر الوقوف عندهما . ففي سياق النصف الثاني من القرن الرابع عشر اصطُنعَ البارود ، لأول مرة ، فأحدث بصورة تدريجية بطيئة انقلاباً في أساليب القتال الأوروبية ، لِما قد قاد اليه من اختراع المدفع والبندقية القديمة اللذين قُدّر لهما ، وإن كانا أول الأمر على غاية من البدائية في التركيب ، أن ينسخا الأسلحة العتيقة بلا ترفّق ولا استبقاء . وعلى أثر هذا التجويد التقنيّ على اختلاف ضروبه أعلنت بعض

التغيرات ، في غير ما بطء ، عن نفسه . وتفصيل ذلك أن سلطان الأمير الاقطاعي كان يقوم ، الى حد بعيد ، على امتلاكه دون غيره من الناس "عدة" باهظة الثمن تتألف من جواد ورمح ودرع . ولما كانت الاسلحة الجديدة - بالرغم من انها ظلت فترة طويلة على حال من النقص التي يكاد يثير السخرية - ابعد أثراً ، من حيث صناعة القتل ، من السنان والسيف فقد رجحت كفة أعداء النبلاء العسكريين اعني القوات المرتزقة الوضيعة النسب التي استطاعت ، قد جهزها به الملك على نفقته من عتاد ، وبما قد اصطنعت من طرائق في القتال تتفق والسلاح الجديد ، أن تحبط كل هجوم يقوم به النبلاء ، وان تقتحم من ناحية ثانية اسوار القصر الاقطاعي التي كانت حتى ذلك الحين حصينة لا تؤخذ . والواقع ان الملكية القوية التي سنفصل الكلام عليها بعد إنما نهضت في مطلع القرن الخامس عشر ؛ وهي مدينة في ما وُفقت اليه من إزعاج النظام الأقطاعي عن مكانته والقضاء عليه ، لنمو المدن الذي درسنا . ولكنْ ليس ثمة مجالٌ للشك في ان الثورة التي طرأت على الأساليب الحربية بعد اصطناع البارود والاسلحة الحديثة قد عجلت في انحطاط النظام الأقطاعي تعجيلا كبيرا .

الطباعة تنطوي على سلسلة من المخترعات

هذا عن البارود ومتعلقاته . ولكن الاختراع الثاني

كان اعظم شأناً ، وكان دونما ريب واحداً من المخترعات الأبعد اثراً في تاريخ النوع البشري ، اعني الطباعة . فما دامت الكتب تُخط باليد ، في مشقة وعُسر ، فقد لزم بالضرورة ان تكون نادرة غالية الأثمان ، وان تكون امتيازاً للملوك والأمراء من مدنيين وإكليركيين . وبنمو المدن اصبحت الحاجة ماسّة الى طريقة في إذاعة الأفكار تكون اكثر يُسراً واقل نفقة ؛ وقد سُدت هذه الحاجة ، كما جرت العادة ، بسلسلة كاملة من المخترعات آخذ بعضها برقاب بعض لا بمُخْتَرَع مفرد . وإن الموقف ليتضح اتضاحاً حسناً اذا ذكرنا ان النساخ في العصر الوسيط كتبوا اكثر ما كتبوا على الرَّق المعد من جلود الحيوانات ، وجلود الأغنام على وجه التفضيل . وكانت الاستعاضة عن الرَّق المكتوب الكثير النفقة بغيره مما يسدّ مسَدَّهُ تقتضي سلسلة من اعمال طويلة اهمها اختراع **الورق** و **حرف الطباعة المنفصل** . فحوالى منتصف القرن الخامس عشر اصطُنع الورقُ الكتاني الممتاز المعد من ألياف القنب عوضاً عن الرقّ . وما هي إلا فترة قصيرة حتى خرج من المطبعة ، سنة ١٤٥٤ ، اول كتاب مطبوع بالحرف المنفصل . وليس من مجرد الاتفاق ان يكون أولَ ما ابدعته الآلة الجديدة الموفرة للعمل ، في عصرٍ ما يزال الطابع الأكليركي أغلب عليه ، نسخةً مترجمة ✲ من الكتاب المقدس . ويميل المرء

✲ الى اللغة اللاتينية . [المعرب]

الى الاعتقاد ، بعد ان يزن الحقائق كلها أن هذه النسخة من الكتاب المقدس لم تكن عمل طابعها المباشر وحده ، وإنما كانت شيئاً اكثر من ذلك . كانت ثمرة جهود متشابكة بذلتها ثلة من الرجال الذين نجهل اسماءهم والذين نهض كلٌ منهم بقسط معين من تلك المهمة الكبيرة . وإذا كان هؤلاء الرجال يقطنون ، على ما يظهر ، المدن المزدهرة القائمة على مجرى الراين ففي استطاعتنا ان نعتبر الطباعة ، بحق ، هدية إجماعية قدمتها مدن الراين الى النوع البشري . اما الاختراع الذي توج هذه الجهود كلها ، اختراعُ حرف الطباعة المنفصل ، فيُعزَى عادة الى **جون غوتنبرغ** ✲ John Gutenberg من أبناء مدينة مينز Mainz .

الثورة العارمة التي احدثتها الطباعة

وفي بضع عشرة سنة انتشرت الطباعة من الراين الى بلاد اوروبة جميعاً . وتضاعف عدد الكتب ، وكانت من قبل شيئاً نادراً عزيزاً ، بمثل فعل السحر ، وبيعت بثمن بخس ، حاملةً المعارف القديمة والجديدة الى دنيا الناس . فكان من اثر ذلك ان اصبح العلم ، علمُ المدارس التيّاه المحاطُ بالحواجز والسدود ، أقرب الى المتناول العام . ليس هذا فحسب ، بل لقد سخرت الطباعة لكل مجدد او مصلح أداة فعالة يستعين بها على اذاعة برنامجه في العالمين . ومع

✲ (١٣٩٧ ؟ ـ ١٤٦٨) [المعرب]

ان من الخطأ ان نتصور جمهور الناس في ذلك الحين وقد أولعوا بالطباعة وعملوا على رفع انفسهم ، في غير ما ضجة او جلبة ، الى مستوى من الفهم جديد ، فان من المحقق ان افراد الطبقات الوسطى ، حملة مشعل النهضة الحقيقيين ، حرصوا أشد الحرص على الاحتفاظ بالنصر الذي تم لهم من قبل . والواقع ان الطباعة ساعدت على تقدم هذه الطبقات الى محل السلطة باكثر مما ساعد اختراع البارود نفسه . ومن الادلة الواضحة على نهوض الطبقات الشعبية أنه لم تكد تمضي بضع عشرة سنة حتى بلغ عـــدد الكتب المنشورة بمختلف اللغات القومية الاوروبية أضعاف اضعاف الكتب المطبوعة باللاتينية ، لغة الفكر عند نفر محدود من العلماء . وليس هذا بعجيب ؛ فقد تعين على الكاتب الذي يطمع في اقبال الناس على قراءة مؤلفاته ، ان يذيـع افكاره بلغة المـنزل والشارع . ولكن اذا كان الاختراع الجديد قد ساعد اللغات العامية على احراز النصر النهائي على اللاتينية ، فانـه جنح كذلك الى القضاء على اللهجات الكلامية المختلفـة ، في كل بلدٍ اوروبي ، ليحل محلها اصولاً وقواعد لغوية ثابتة اعتبرت واجبة الاتباع في الاغراض الادبية . وبكلمة اخرى : ان اللغات الايطالية والفرنسية والاسبانية والالمانية والانكليزية انما اصطنعت لبوسها الحديث ، في القرن السادس عشر ، بانتشار الكتب المطبوعة انتشاراً عريضاً .

« ه » — النزعة الفردية Individualism

نظام الطبقات الصارم في العصر المتوسط

من العسير على الرجل الحديث ان يدرك الى اي مدى كان العصر الوسيط عهد طبقات وانضباط طبقي . كان المرء يحيا حياته ، فارساً كان او تاجراً او صانعاً او فلاحاً ، بروح الولاء الطبقي والطاعة العمياء لما رسخ في مجتمعه من عادات ، وتوطد من تقاليد . كان يلتمس العدل اذا ما اوذي في حقوقه ، لدى القضاء الذي يعنى بصالح طبقته الاجتماعية . ومعنى ذلك انه كان هناك قضاء للنبلاء ، وقضاء لرجال الدين ، وقضاء للمدنيين ، وقضاء للفلاحين . صحيح أن قضاء الملك كان فوق اي قضاء مدني آخر ، ولكنه لم يكن يعمل دائماً ، بسبب من ضعف الملك او فقده لسلطته في كثيرٍ من الاحيان . وكان لكل طبقة لباسها الخاص ، وفنها الخاص ، وادبها الخاص ، بل وتسلياتها وآداب طعامها الخاصة . وعلى الجملة ، فقد كان نظام الطبقات قاسياً عاتياً الى درجة امسى معها الفرد خاضعاً ، في كل مهمٍّ من امر الحياة ، لمجموعة ضخمة من التواضعات الصارمة باكثر مما يجب ، والمتمتعة مع — الايام — بقوة القانون .

المذهب الفردي ينجب كوكبة من الشخصيات الملهمة

حتى اذا كانت النهضة اخذت حواجز العادة الغليظة في

التقلص ، بفعل القوى التي درسنا الى الآن ، مما شجّع الناس على أن يخففوا من غلواء ولائهم للمجموع ، ليتعلقوا بالمثل الأعلى الجديد القائل بالحرية الشخصية . فقد تضايق التاجر الكبير ، في البندقية أو فلورنسة ، من القيود المتعددة التي فرضها زملاؤه في نقابة التجار ، في كل ما يتعلق بالبيع والشراء ، وداخلَهُ الاعتقاد بأنه خليقٌ إذا ما أطلقت يدُه من عقالها بأن يرتقي سُلّم النجاح الذهبي بأسرع كثيراً مما يفعل الآن . وبمثل هذه الافكار التي اخذت تغلي في رأسه ، انتصر تاجر النهضة لسياسة اقتصادية تقول بالعمل المطلق غير المقيّد ، شأن معاصره « الانساني » الذي قاده غرامه بالتراث الكلاسيكي وأخذُهُ ببرنامج في التثقيف جديد ، الى ان يتوق الى الانعتاق من القيود الفكرية والاخلاقية التي فرضتها الكنيسة والجامعة . والواقع انك كلما اقتربت اقتراباً كافياً من احد ميادين النهضة لترى ما الذي يجري فيه فعلا تجلى لك ان القادة المقدّمين في ذلك الميدان الذي تدرس آخذون في تحرير أنفسهم من أصفاد الماضي ، ليستهدفوا تعبيراً ذاتياً أوفى وأكمل . وباللغة الفلسفية ، نستطيع ان نقول إن النهضة هي عصرٌ انبثقت فيه نزعةٌ فرديةٌ روحُها الحرية . الحرية — ما أخلبها من دعوة وما أشد إغواءها ! لقد دوّت أصواتها طوال القرون المتعاقبة وما تزال ، حتى يومنا هذا ، تدوّي بسحرها القديم كله . وليس من ريب في

أن الرغبة في تحقيق أقصى قدرٍ ممكن من التعبير الذاتي الحر هي المسؤولة ، في الدرجة الأولى ، عن ظهور هذه الجمهرة الضخمة من العبقريات التي لمعت في سماء القرنين الخامس عشر والسادس عشر والتي قد تكون اكثر إشراقاً وأوضح معلمَ من أي جمهرة من كبار الرجال حفلت بها أيما حقبة أخرى من حقب التاريخ .

النزعة الفردية تغزو نظاماً أخلاقياً خاصاً

واذا كانت النزعة الفردية ، بما تقتضيه من حق كل امريء في أن يسعى الى غايته الأكمل ، قد صارت الى مقام الطليعة في هذا الوقت لتظل عنصراً روحياً مميزاً للعصر الوسيط كله ، فقد حملت معها بعض النتائج الاخلاقية التي لايمكن إغفالها . ذلك أن نظام الطبقات الوسيط بسلطانه الدقيق الصارم ، قد علّم الناس ان يلتمسوا سعادتهم في خدمة المجموع ، وفي العمل على كبح جماح الذات وكبتها ، أما النهضة فجنحت ، بمذهبها الفردي ، الى إغفال المجموع وتضحيته لمصلحة اعضائه الاكثر نشاطاً والأعلى كفايةَ ، والى وضع مقياس حظيَ بفضله الموهوبون والناجحون ، دونما اعتبار للضرائق التي يصطنعونها ، بالتشريف العام . وهكذا تلاقى نوعان من السلوك ، أو باللغة الفلسفية ، نظامان في الاخلاق وجهاً لوجه . واذا كان السلوك الوثني الفردي قد ارتفع الى المكان العالي ، غير مدافع ، في عصر النهضة فأن

سلوك العصر الوسيط ، أو ما نستطيع ان ندعوه السلوك المسيحي الاشتراكي ، لم يخرج بأي حال إخراجاً تاماً من المسرح . والحق ان من السهل ان نرى هـــذين النوعين يعيشان جنباً الى جنب ، في تنافر صريح ، اكثر الأحيان ، حتى جيلنا الحاضر . ومما زاد الموقف تعقيـداً ان الانسان الحديث ، بوصفه الوارث التاريخي لنظامين اخلاقيين ، كثيراً ما يحاول الجمع بينهما في شخصه المفرد ، لتكون النتيجة في معظم الأحوال اشبه شيء باجتماع النار والماء .

عناصر النزعة الفردية الرئيسية

واخيراً فاننا مع اعتبارنا الكامل لاختلاف الحال من بلدٍ الى بلدٍ ، ومن طبقةٍ الى طبقـــة ، لا نزال مضطرين الى الاقرار بأن عصر النهضة قـد اعلن دستوراً اخلاقياً جديداً يقوم في عناصره الرئيسية على توكيدٍ قوي للفردية ، وإعلان للانعتاق من الأغـلال الموروثة ، وتطبيقٍ لمذهب اخلاقيٍّ وجمالي يتناغم والموقف التحرري الجديد من مشكلة العيش .

« و » – رحلات الاستكشاف والاستعمار الاوروبي

رحلات الاستكشاف ليست حدثاً مستقلاً

لقد اكتشفنا من قبلُ تفاعلَ قوى النهضة المطّرد ، هذه القوى التي عزلنا بعضها عن بعض عزلاً اصطناعياً في هـذا

الفصل تسهيلاً للبحث . وها نحن نعاود ههنا هذا التأكيد بمناسبة كلامنا على الرحلات الاستكشافية . وهل يمكن لرحلات الاستكشاف هذه ان تُفصل منطقياً ، عن اتساع المدن التجاري الذي درسنا سابقاً ؟ لا ، من غير شك ، ما دامت هذه الرحلات ، وقد وقعت إثر ذلك الاتساع مباشرة ، هي في الدرجة الاولى حركة تجارية . هذا من ناحية . ومن ناحية ثانية ، هل ترتبط هذه الرحلات ارتباطاً وثيقاً بحركة احياء العلوم ؟ بلى ، من غير شك ، ما دام العلم الجديد هو الذي بعث الجغرافية البطليموسية وعمّم الفكرة القائلة بكروية الارض . وليس من ريب ايضاً في ان حركات الكشف مدينةٌ كثيراً للشهوة الجديدة الى التعبير الذاتي والمخاطرة التي تأججت إبان النهضة ، تأجج النار ، في قلوب الناس .

البرتغال تدشن رحلات الاستكشاف

ولعل من الصواب ان نقدم لهذا القسم من دراستنا الموجزة للنهضة بتلك الرحلات الحذرة التي كانت اول ما عرّف البحر الابيض المتوسط الى التجار الايطاليين اثناء الحروب الصليبية وبعدها ، ما دامت هذه الاعمال المبكرة المتواضعة هي التي ولدت حب البحر في نفوس الاوروبيين . وأياً ما كان ، فأن رحلات الاستكشاف انما تفيد الضرب في المحيطات الواسعة ، وهو ما كان للبرتغاليين حظ السبق

اليه على التحقيق . والواقع ان من ابرز الظواهر التي يتعين علينا ان نسجلها في ما يتصل بالمركز التجاري لهـــذا البلد الصغير هي انـــه لم يشارك في مكاسب تجارة الافاويه التي حكرها الايطاليون . يضاف الى ذلك ان البرتغال تقوم ، من الوجهة الجغرافية ، قبالة افريقية ، هذه القـــارة التي اضطر البرتغاليون اضطراراً الى الاهـتمام بها ، بسببٍ من ان شمال افريقية الغربي كان آهلاً بالمسلمين المغاربـة الذين كانوا يتربصون بالتجارة البرتغـالية الدوائر ، وينزلون بها أفدح الاضرار .

الاكتشافات البرتغالية

وفي النصف الاول من القرن الخامس عشر تتصر احد امراء البيت المالك البرتغالي ، المعروف بالأمير **هنري الملاح** للفكرة التي شاعت في ذلك الحين بسببٍ من اشتداد النزعة « الانسانية » والـــتي تقول بامكان الأبحـار حول افريقية الى الهند ، ذلك الصقع الاسطوري الذي ترد منه الأفاويه . وإنما دفع هنري الملاح في هذا السبيل أيضا شعورٌ ديـــني عميق كان يعمر قلبه بالأمل في ارضاء الله من طريق ادخال الافريقيين في الديانة المسيحية . فتحرك لتجريد البعثـــات الاستكشافية ، فوفق بعد فترة قصيرة الى اكتشاف جزائر آزور وجزائر الرأس الأخضر Cape Verde . حـتى إذا توفي سنة ١٤٦٠ كان بحارته الشجعان قد تقدموا بمراكبهم

الصغيرة على طول الشاطيء الافريقي ، حتى خط الاستواء تقريباً . وعلى اي حال فقد أثبت الارض ، في عناد ، وبرغم صوات البحرة ودعواتهم الصارخة ، ان تنعطف نحو الشمال الشرقي انعطافاً ينهض دليلاً على ان اولئك المغامرين أتموا دورتهم حول القارة . واخيراً حقق **دياز** Diaz هذا النصر البارع سنة ١٤٨٦ متجوزاً رأس الرجاء الصالح ببضعة فراسخ . وبعد اثني عشر عاماً ، سنة ١٤٩٨ ، توج **ڤاسكو دا چاما** Vasco da Gama قرناً من المجهود البطولي بأبحاره عبرَ المحيط الهندي الى كاليكوت Calicut في الهند . وإذْ قد اصبح في مقدور البرتغاليين ان يحصلوا ، منذ اليوم على اصناف الحرير والأفاويه وغيرها من نفائس الشرق من منابعها الأصلية مباشرةً ، فقد اقيمت التجارة الاوروبية المعنية بهذه البضائع على اساس جديد . ذلك بان المدن الايطالية ، وفي طليعتها البندقية ، أصيبت بضربة مميتة بعد ان عجزت عن ان تباري البرتغال في هذا المضمار . وعلى الرغم من ان العاصمة الادرياتيكية * قد لا تكون أدركت هذه الحقيقة في الحال ، فليس من شك في ان عصر شبابها قد ولى لتأخذ بعدُ في الضعف والانحطاط .

كريستوفر كولومبس يبحر الى الهند غرباً

والواقع ان الكشوف الرائعة التي دشنها الامير هنري

* يقصد البندقية [المعرب]

أوقعت روح التنافس في جميع القلوب العامرة بالجراءة والبأس في العالم البحري كله . وإذ كان البرتغاليون قـــد وقفوا انفسهم لمهمة البحث عن بلاد الهند بالدوران حول افريقية فعلامَ التواني عن سبقهم الى هدفهم من طريق الأبحار غرباً عبر المحيط الأطلسي ؟ ذلك بأنه إذا كانت النظرية البطليموسية التي شاعت بين العلماء صحيحةً حقـاً فأن من المحال أن يخطيء المرء بلاد الهند عن ذلك السبيل . وقد أنعم النظر في هذه الفكرة حتى استوثق من إمكان تحقيقها رُبّانٌ جريء جَنَوي المولد ، هو **كريستوفر كولومبس** (١٤٤٦ – ١٥٠٦) . والحق أن كولومبس تعرّض لازدراء عظـــيم من جانب المؤثرين للعافيـة ، الراغبين في المكوث حيث هم ، وأنفق الايام الطويلة في البحث عن ظهيرٍ يستعين بأمواله على تحقيق فكرته ، ليحظى اخيراً بنصرة امرأةٍ حصيفة الرأي بعيـدة مرمى الخيال هي ايزابلا ملكة قشتالة . حتى إذا جهّزته ، في ٣ آب سنة ١٤٩٢ ، بثلاث سفن صغيرة أبحر من ميناء بالوس على الشاطيء الأسباني الغربي فبلغ اليابسة عند جزائر باهاما Bahama الصغيرة ، في ١٢ تشرين الأول ، بعد شهرين ونيّفٍ من الضرب في المحيط ، وبعد ان وقع في نفوس رفاقه اليأسُ من النجاح . ثم إنه قبل ان يعود فيتوجّه شطر اوروبة اكتشف جزيرتي كوبا وهايتي الكبيرتين المجاورتين ، أيضاً .

التباس الأمر على كولومبس في ما اكتشف

واعتقد كولومبس ، بسببٍ من خطأه في حساب محيط

الأرض ، أنه قد انتهى الى تخوم الهند الأسطورية ، أرض الأفاويه المرجوّة ، فأطلق على اولئك السكان الوطنيين الغربيين اسم الهنود فلزمتهم التسمية حتى يوم الناس هذا .
ولما رجع الى اسبانية هلّل له البلاط والشعب من اعماق القلب ، وكافأته الملكة ايزابلا على ما تمّ له من نصرٍ بأن رفعته الى رتبة أمير البحر (أميرال) وأنعمت عليه بلقبٍ نبيلٍ ، وأسندت اليه منصب نائب الملكة في الجزائر الجديدة .
ثم إن كولومبس اردف رحلته هذه بثلاث رحلات متعاقبة ولكنه لم يُفِدْ منها ما يقوده الى تصحيح الانطباعة التي أوهمته من قبلُ أنه بلغ مشارف آسية ، وأرض الأفاويه الهندية . وإذْ كان كولومبس حادّ المزاج سريع الغضب ، وإذْ كان يحيط به نفرٌ من الخصوم الألداء ، فقد امتحنه الدهر بمحنٍ عجيبة ؛ ولعل اغربها أنه اعتُقل في احدى رحلاته المتأخرة الى الاراضي التي اكتشفها وحُمل الى اسبانية أسيراً مصفّداً بالحديد ؛ حتى إذا توفي سنة ١٥٠٦ نُسي بأسرع ما يكون النسيان . ولم يقف الامر عند هذا الحدّ ، بل عداهُ الى ما هو أدهى . ذلك بأن العالم الذي اخرجه كولومبس من الظلمات الى النور * لم يوسَمْ ، لنكد الطالع

---

* تحسن الاشارة العارضة الى ان الشماليين القدماء Northmen اكتشفوا اميركة في القرن العاشر ، منطلقين اليها من آيسلندة ودعوها فينلندة Vinland . ولكن لما كان اكتشافهم لم يقدر له ان يستمر ويتابع فانه لم يعد على الحضارة بفائدة ، ولا ينتقص مطلقاً من شهرة كولومبس التي لها في استحقاق . [المؤلف]

الفاجع ، باسمه هو ، بل باسم رحالة وجغرافيّ ليس له كبير شأن نسبياً ، هو **أميريكو فسبوتشي** Amerigo Vespucci من ابناء البندقية .

الاستكشاف يصبح شهوة

ونتج عن هذه الانتصارات الرائعة ان اضحى الاستكشاف شهوةً تعصف بالنفوس ، ومخاصةٍ بين البرتغاليين والاسبان . ومع ترامي البحار وشدة مخاطرها فقد شعرت كل نفسٍ مغامرةٍ بانها مدعوّةٌ ، من اعماقها ، الى الضرب في الاصقاع المجهولة حيث الشهرة العريضة والكنوز التي تنتظر من يستبيحها . وهكذا تَبِعَتِ الرحلةُ الرحلةَ ، وكلٌّ تضيف لبنةً جديدة الى صرح الجغرافية العالمية . ففي سنة ١٤٩٧ بلغ **جون كابوت** John Cabot وهو بندقي في خدمة هنري السابع ملك انكلترة ، جزيرة رأس بريتون Cape Breton في اميركة الشمالية . وفي سنة ١٤٩٩ استطاع **بنزون** Pinzon الذي صحب كولومبس في رحلته الاولى ان يرود ساحل البرازيل كله ، وبذلك اخذت الكتلة القاريّة العظيمة المحجوبة بستارٍ من الجزر التي اكتشفها كولومبس تتراءى للعيان شيئاً بعد شيء ، ليتضح انها لم تكن لا الهند ولا الصين . والحق أن هذا الجهد المتضاعف انتهى الى اوجه عندما حاول **ماجلاّن** Magellan ، وهو برتغالي في خدمة اسبانية ، أن يبلغ آسية ، سنة ١٥١٩ ، عبر مجاز قائم الى جنوبي الحاجز القاريّ الاميركي . حتى إذا نجح في الدوران

حول رأس هورن Cape Horn كان اول اوروبي اقترع المحيط الهادي . وفي سنة ١٥٢٢ رجعت سفينته المدعوة بحق « النصر » Victory الى نقطة انطلاقها من اوروبة ، بعد رحلة استغرقت ثلاث سنوات . وعلى الرغم من ان مجلان نفسه لم يعش ليقطف ثمرة جهده ، اذ انه قتل في جزائر الفيليبين ، فقد حظي من غير شك بشرف الطواف البحري لاول مرة حول الكرة الارضية .

اوروبة تصطنع سياستين مختلفتين في آسية والاميركيتين

ولمّا كانت حركة الاستكشاف ترجع في اصولها الى غرائز الانسان التجارية ، فسرعان ما سخرت لأغراض التجارة . ولكن هذا لم يكن كل شيء . ذلك بان البرتغاليين والاسبان اخذوا على عاتقهم ايضاً ، بعد ان استشعروا القوة والبأس ، ان ينشروا النصرانية في الاصقاع الجديدة وان يعمروها بمهاجرين من الوطن الأم . وبكلمة اخرى ، لقد تبنوا سياسة ترمي الى صبغ البلاد بصبغة اوروبية خالصة . ومهما كان فلم تنقض غير فترة وجيزة حتى اتضح ان هذا البرنامج الضخم لا يمكن ان ينجح إلا في قارتي اميركة الشمالية والجنوبية ، بسكانها المتشتتين المتوحشين . أما في بقاع آسية الكثيفة السكان ، وبخاصة في الهند والصين حيث كان اهل البلاد الوطنيون يعتزون بحضارة تعدل ، إذا قيست بمقياس موضوعي ، حضارة اوروبة وان تكن من نوع آخر ، فقد

تعثرت حركة التنصير والاستعمار بعقبات لا تكاد تحصى . ومن هنا نسجل تبايناً قوامه أن آسية ظلت ، كما بدأت ، حقلاً من حقول الاستثمار التجاري الخالص ، في حين حفلت الاميركيتان تدريجياً بالمهاجرين المستعمرين ، واصطبغتا بالصبغة الاوروبية .

البرتغال واسبانية تحاولان احتكار الاراضي الجديدة

وكان للبرتغال واسبانية في هذا المضمار الاستعماري امتياز على سائر الدول الاوروبية بسبب من انهما كانتا أسبق هذه الدول الى اكتشاف الاراضي الجديدة . وقد بلغ الحرص بهاتين الدولتين ، في وقت ما ، حد التفكير بأقصاء أيما فريق ثالث يسعى الى ان يكون له نصيب في ملك العالم الجديد ، وبذلك تتقاسمان وحدهما غنائمه البالغة . والواقع ان خلافاً نشب بين الدولتين فتحاكمتا الى البابا ، لتتفقا بعد مساومة طال امدها (١٤٩٦) على قسمة الدنيا الجديدة على اساس خط الطول الواقع الى ثلاثمائة وسبعين فرسخاً غربي جزائر الرأس الأخضر ؛ فكانت جميع الاراضي الواقعة الى شرقي هذا الخط من نصيب البرتغال وجميع الاراضي الواقعة الى غربيه من نصيب اسبانية . ولكن الدولتين لم تستطيعا الاحتفاظ بنتائج هذه التسوية العائدة على كل منهما بالخير العميم . ذلك بان كلاً منهما كانت خليقة في نهاية المطاف بان لا تمتلك غير البلاد التي استطاعت ان تضع يدها عليها عملياً ، في حين وجدتا كلتاهما ان من المتعذر عليهما ايصاد

الابواب في وجه الدول الاخرى المنافسة . وهكذا قدر لانكلترة ولفرنسة (وربما لغيرهما من البلاد ايضاً) ان تشتركا ، عاجلاً او آجلاً ، في هذا السباق الى الممتلكات الجديدة وهما على مثل اليقين ، بالنسبة الى مواردهما الكبيرة ، من النجاح في ما تسعيان اليه .

مناطق النفوذ الاستعمارية البرتغالية والاسبانية

والواقع ان التنافس الاستعماري الضاري بين الدول الاوروبية هو من اهم الظواهر التي كانت شغل اوروبة الشاغل في العصر الحديث . ولسوف يكون من غرض هذا الكتاب ان يفصل القول في هذا التنافس المستعر . اما الآن فسنجتزيء بالنظر الى الدول الاوروبية المختلفة مرتبطةً بالاصقاع الرئيسية التي وجهت نشاطها الاستعماري اليها بادىء الأمر . فقد اقام البرتغاليون مراكز تجارية على طول الساحل الافريقي وشواطيء آسية الجنوبية ليسيطروا طويلا ، بواسطة سلسلة غير منقطعة من المنشآت المحصنة ، على تجارة المحيط الهندي . كذلك نزل منهم في البرازيل ، التي تقع شرقي خط الطول المتفق عليه مع اسبانية ، عددٌ كافٍ لطبع البلاد تدريجياً بالطابع البرتغالي في اللغة والعادات . اما الاسبان فقد اقاموا قواعدهم الاستعمارية الرئيسية في المواطن التالية (١) جزائر الهند الغربية ، الى حيث وجه كولومبس نفسه سبل الهجرة لأول مرة .

(٢) المكسيك التي كسبها **كورتز** Cortez الفاتح الجسور ، للأسبان . (٣) بيرّو التي فتحها **بيتزارو** Pizarro وكان يُعدِلُ كورتز جسارةً وبسالةً . (٤) جزائر الفيليبين التي كان الفضل في اكتسابها لماجلان . وبواسطة جزائر الهند الغربية والمكسيك وبيرو ، بوصفها قواعد للانطلاق نائية ، احاطت اسبانية باميركة الوسطى والجنوبية كلها ، وما لبثت ان احتلتها (خلا البرازيل) في حين انها كسبت ، بواسطة جزائر الفيليبين ، موطيء قدمٍ ذا اهميةٍ في المياه الآسيوية .

انكلترة تتجه ببطء نحو الساحل الاميركي

ولم تشترك دول اوروبة الشمالية في الصراع على العالم الجديد إلا في ما بعد ، وفي بطء كثير . والواقع ان ما بذله هنري السابع الانكليزي من جهد ليضمن لبلاده نصيباً من الغنيمة إنما يستمد أهميته من النتائج التي ما كان يتوقعهـــا . ففي سنة ١٤٩٧ وجه هذا الملك الانكليزي جون كابوت في رحلة استكشافية ، فوفق كما سلفت الأشارة الى ان يبلغ ساحل اميركة . وبعد أيام هنري وقد المشروع الانكليزي ليتجه عند نهضته الى كشف طريقٍ آخر جديد ، عبر مياه الشمال الغربي ، الى قبلة الآمال جميعاً ، اعني بلاد الأفاويه الآسيوية . وإنما قصد الأنكليز من وراء هذه الخطة الى القيام بمثل المأثرة التي تمّت للبرتغاليين والأسبان الذين بلغوا آسية عن طريقين ، افترع احدهما الأولون (البرتغاليون)

جنوبـــاً بشرق ، وابتكر ثنيهما الآخرون (الاسبان) جنوباً بغرب . ومـع ان الخطة الانكليزية مُنيت بالفشل بسبب من امتداد اميركة الشمالية امتداداً بعيداً في المحيط المتجمد ، فقد كان من إثرها انها حفظت عـلى الاقل اهتمام الانكليز بالساحل الاميركي الشمالي من ان يتطرق اليـــه الذبول . ولكن الانكليز لم يولوا هـــذا الميدان عنايتهم الكاملة إلا في اوائل القرن السابع عشر ، حين شرعوا في استعمار ساحل الأطلسي استعماراً نظامياً .

فرنسة تقتسم كندا ولويزيانا *

وكان الفرنسيون اكثر تثاقـلاً من الأنكليز في العمل الاستعماري فـلم يحاولوا بصورة جدية أن يفتحوا لأنفسهم فتحاً خاصاً إلا في عهد الملك هنري الرابع (١٥٨٩ — ١٦١٠). ومن ذلك الحين اسرعوا الى تلافي نتائج اهمالهم ، فنزلوا في كندا ثم لويزيانا ، اي في حوضي سانت لورانس والمسيسيبي العظيمين .

---

* احدى الولايات المتحدة الاميركية وهي تقع على خليج المكسيك وتقوم فيها دلتا المسيسيبي . وانمـــا دعيت بهذا الاسم نسبة الى الملك لويس الرابع عشر . وكانت لويزيانا ملكاً للفرنسيين واشترتها الولايات المتحدة في عهد رئاسة توماس جفرسون (سنة ١٨٠٣) من نابليون بونابرت بخمسة عشر مليون دولار ، وكانت اذ ذاك تمتد من المسيسيبي الى جبال روكيز Rockies ومن خليج المكسيك حتى اميركة الشمالية الأنكليزية . [المعرب]

المانية وايطالية لانتشارهما في الحركة الاستعمارية

واذا ادركنا ان النجاح الاستعماري كان مرهوناً في كل حين بنصرة دولة قوية في الوطن الأمّ اتضح لنا كيف ان المانية التي كان امراؤها الاقطاعيون قد نجحوا في ان ينزلوا بالسلطة المركزية الى دركة العجز لم يكن لها في رحلات الاستكشاف نصيب ، وهكذا خرجت صَفِرة اليدين من غنائم التوسع الاستعماري . والشيء نفسه ينطبق على ايطالية التي كانت تجزئتها السياسية البائسة سبباً في اقصائهـــا عن الغنيمة الاسيوية والاميركيـة . لقد كانت هـذه المكاسب الضخمة الكامنة في تلك البقاع من حق الدول القوية المتحدة ، ليس غير .

« و » – نشوء الرأسمالية

الاقتصاد الوسيط اقتصاد مديني وَحْدَتُهُ النقابة

وهناك ظـاهرة من ظواهر عصر النهضة لا نستطيـع إغفالها ، وهي انه ابرز لنا بصورة ناضجة شكلاً من اشكال التنظيم الاقتصادي نلمح فيه جرثومة الرأسمالية الحديثة . فقد لاحظنا ونحن ندرس نشوء المدينة ان الحياة الاقتصادية النامية فيها تمركزت حول النقابة . وكانت النقابة مؤسسة رائعـة في طريقتهـــا وبالقياس الى عصرها . لقـد غذّت سوق المدينة التي كان لهـــا حق احتكاره ، ولكنها تحملت أيضاً

واجبات تتكافأ وهذا الامتياز ، فكانت تقدم الى المدينيين سلعاً سليمة بثمنٍ معتدل . وكان لنظام النقابة الاقتصادي غاية أبعد هي إزاحة الوسيط ، اي الرجل الذي لا يعمل شيئاً غير التجارة ، من السوق ، بان طلبت الى كل من ينتج السلع ان يعرضها ويبيعها في دكانه .

التاجر المغامر ينفرد بالتجارة الخارجية

ومهما كان فان نظام النقابة الذي وُضع لاغراضٍ محلية انتهى الى ان يكون عديم الفعالية في اللحظة التي نشأت فيها مسألة تصدير السلع التجارية تصديراً ناشطاً . فقد اقتضى هذا العمل تبصراً ومبادرةً ، وهما امران لا يجتمعان في غير التاجر المقدام الذي يستطيع ان يجزم امره بحرية ، والذي لا تعوقه الانظمة الدقيقة التي تفرضها النقابات في امور البيع والشراء . ومن هنا لم تكد التجارة الايطالية مع المشرق اثناء الحروب الصليبية وما بعدها ، مثلاً ، تنمو وتزدهر حتى خرجت على سلطة النقابة ، واستقل بها نفرٌ من التجار المؤيدين بعبقريةٍ في العمل خاصةٍ . ومع ان المخاطر التي تنطوي عليها هذه المشروعات الخارجية الواسعة الافق كانت ضخمة ، فان المكاسب المتكافئة معها ضخامةً قد أورثت اصحابها ثرواتٍ لم تقم في وهم اهل الحرف واصحاب الحوانيت المقيمين في ارض الوطن ، وعملت في المدن الايطالية أولاً ثم في الغرب كله على نشوء طبقةٍ صغيرة من

أمراء التجار والرأسماليين الذين صعّروا خدهم لسائر افراد المجتمع .

شركات التجار ونشوء المصارف

وعلى الرغم من ان العادة جرت في ذلك العهد بأن تُكتسب الثروة من طريق النشاط الفردي فقد اخذت تُجمع ، وفقاً لمقتضى العصر ، من طريق المشاركة أو التعاون في المغامرة التجارية أيضاً . لنفرض مثلا ان بندقياً ذكياً رأى سانحة الربح في ان يستورد من الاقاويه ما يملأ سفنا بكاملها ، من الاسكندرية . إنه لا يستطيع ان يجهز السفن ، وان يزودها بالسلع التي ستحملها في هذه الرحلة البعيدة لتباع في السوق المصرية ، ولا يطيق دفع اجور جميع الملاحين العاملين عليها ، من موارده الخاصة . إن عليه ان يبحث عن شركاء يقاسمونه المكاسب المرجوة بنسبة تتفق ومدى إسهامهم في المشروع . فاذا نجحت الشركة ، وهي تُنشأ بادىء الامر لرحلة واحدة ، فقد تتخذ شكلا ثابتاً مستقراً . وإذ كانت رابطة النسب الدموية ادعى الى التعاطف والثقة فقد اتسمت اكثر الشركات الاولى بالسمة العائلية . يضاف الى ذلك انه لما كانت شركات التجار على اتم الاهبة لاغتنام كل فرصة تسنح لها ، فانها لم تقصر جهدها على التجارة فحسب بل عدتها الى الاعمال المالية التي ما كان يمكن للتجارة ان تقوم بدونها ، بسبب من حالة النقد الداعية الى الحيرة

والارتباك . والحق ان جميع الشركات التجارية الاولى نهضت ، بلا استثناء ، باعمال المصارف ايضا . اما الشركات الفلورنسية التي نمّت ، بذكاء لا يكاد يضل ، إمكانيات العمل المصرفي الى أعلى الدرجات ، فقد اكتسبت مديتها تفوقاً مالياً كالذي تتمتع به لندن او نيويورك في يومنا هذا . اما كيف انتهى المال ، منذ القرن الخامس عشر ، الى ان يكون مَلِكاً مطلق السلطان فيتضح من مثل شركة آل مديتشي ، وكانت في جوهرها مصرفاً عالمياً جمع رأسماله الضخم بزعامة اجيال عدة من التجار البارزين ، فعنيت ، على الطريقة المميزة للرأسمالية الاولى ، بالتجارة واعمال البورصة في كل جزء من العالم المعروف لذلك العهد . حتى إذا كان النصف الثاني من القرن الخامس عشر كان آل مديتشي يديرون مصرفاً فرعياً في كل مركز هام من اوروبة . واخذوا في الوقت نفسه سبيلهم الى الحكومة الفلورنسية ليكون من نتيجة ذلك ان يصبح رئيس المؤسسة ، تدريجياً ، حاكم المدينة الفعلي .

الرأسمالية تقضي على نظام النقابة الاقتصادي

ثم إن تطوراً مماثلاً ، وإن يكن اكثر بطؤاً ، عبد الطريق في الاصقاع الشمالية من الالب وبخاصة في الفلاندر ، لسلطان المال ، لان الرأسمالية التي نشأت مع التجارة الخارجية لم تلبث ان اثرت في نظام النقابة الاقتصادي

الوسيط كلـــه . كان في مقدور المصدّر المتصل بجميع الأسواق ، والمسيطر على موارد وافرة ان يشتري الخامات ، كالصوف او الجلد بابخس جداً مما تستطيع النقابة المحلية . ومن طريق عرض مقادير محدودة من مخزونه ، من ناحية ، والتعاقد مـع المنتجين الفرديين على شراء نتاجهم السنوي بكامله ، من ناحية ثانية ، وُفق هذا المصدّر الى ان يُخضع النقابات قليلًا او كثيراً لسيطرته . ومنذ القرن الرابع عشر كانت صناعة الاقمشة المزدهرة في فلورنسة قد خضعت خضوعاً كاملًا لحفنة من امراء المال الكبار الذين وقفوا انفسهم على مجرد شراء الاقمشة ابتغاء تصديرهـا ، دون ان يُنتجوا هم باردةً واحدة بحيث لم يعد نظام النقابة منسجماً مع المبـدأ الأصلي الذي انبثق منه . والحق ان الملاحظ ليحسّ ان سادة نقابة الصوف الفلورنسية قد تضاءلوا ، في غمرة من تلك الاحوال المتغيرة ، تضاؤلاً امسوا معه اشبه بطبقة من وكلاء الحوانيت ، في حين برز الاجراء اليوميون والمتلمذون على الصناع وكأنهم بروليتاريا من العمال المستأجرين في العصر الحديث .

نشوء المجتمع الرأسمالي

ومثل هـذه الحركة يمكن ان تلاحظ في الفلاندر ، في وقت متأخر بعض الشيء ، ومن بعـد ذلك في انكلترة . وهي تتكشف عن تطور اقتصادي جديد كان خليقاً بأن

ينتهي آخر الأمر باقصاء النقابات الاشتراكية إقصاءً كاملاً عن المسرح ، وبانشاء نظام اجتماعي رأسمالي قائم على التنافس والمزاحمة . ولا محلّ لأقلّ الشك في ان هذا التطور كان امراً محتوماً ، وقَدَراً مقدوراً ، ما دام ينسجم كل الانسجام مع القوى السائـــدة في عصر النهضة : مع اتساع العالم وفُرصِهِ السوانح ، مع الفلسفة الفردية التي تدعو كل رجل الى ان يُفيد أقصى ما تكون الأفادة من كفاءاته وقواه ، ومع الاستعاضة عن المدينة بوصفها وحدة المجتمع الاقتصادية السياسية بالدولة يقوم عليها الملك القوي المُحْدَث modern . والواقع ان ملوكاً من مثل لويس الحادي عشر الفرنسي وهنري السابع الانكليزي ، او من مثل الملك فرنسيس الأول والامبراطور شارل الخامس ، في القرن الذي تلا ، اعتمدوا الاعتماد كله على اصحاب المصارف والرأسماليين ، ونصروهم على اصحاب الحوانيت الذين ناضلوا نضال اليائسين ليحتفظوا بنظام النقابات المألوف ، الآخذ سبيله ، في اطراد ، نحو الهاوية .

« ح » - الملكية القوية

التحالف السياسي بين المدينة والملك

بقي ان ننظر في الحركة السياسية التي طبعت عصر النهضة بطابعها المميّز . فقد رأينا من قبل كيف تحدّت المدينة ، في العصر الوسيط ، الامير الأقطاعي وكيف اخذت سبيلها

الى القوة أخذاً مطرداً ، على الرغم من ان الطبقة الاقطاعية ظلت عاملاً قوياً في الموقف . وكان الملك في النظرية الاساسية التي سادت العصر الوسيط هو نفسه اميراً إقطاعياً ، وإن يكن اميراً اقطاعياً أوّل مُعترفاً له برئاسة شرفية ومحدودة الى درجة بعيدة على اقرانه الامراء . وإذْ كان الملك من اصل اقطاعي ، وإذْ كانت له اهواؤه وتغرضاته الخاصة ، فقد عجز عن ان يدرك ، في كثير من الأحيان ، ان حركة المدن هي في طبيعتها اداة صالحة لتعزيز مركزه ضدّ النبلاء الآخرين . ولكنه ما لبث ان وعى هذه الحقيقة اكمل الوعي ، في نهاية المطاف ، في حين كانت المدن جدّ تواقة الى ان تمنحه ، من غير ما اعتبار لبُعد نظره او قصره ، تأييدها ضدّ النبلاء المُدّعين الذي كانت سلطتهم غير القانونية على الريف تعترض حرية تجارتها . وكذلك انتهى الملك الى ان يكون ، في اوروبة كلها ، هو الحليف السياسي الطبيعي للمدن .

انحطاط قوة الملك فى ايطالية والمانية

ألفت المانية وايطالية ، لأسبابٍ خاصة تتعلق بالتاريخ الوسيط ، الامبراطورية الرومانية المقدسة فكان عليها سيدٌ واحد هو الامبراطور الروماني المقدس . وإذْ قد واجه الامبراطورُ في المانية طبقةً من النبلاء اصحاب الاقطاعات الواسعة وواجه في ايطالية البابا تؤيده المدن فقد كان في

خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر مغلوباً على امره غلبة تامة انتهت به في كلا البلدين ، وبخاصة في ايطالية ، الى غاية العجز . ففي ايطالية استقلت المدن وغيرها من المنظمات المحلية استقلالاً حقيقياً ، بينما تمت للامراء الاقطاعيين في المانية سلطةٌ تعدل سلطة الامبراطور . حتى إذا كان عصر النهضة ازدادت حال الامبراطور سوءاً . ففي ايطالية أقصي عملياً عن الميدان ، في حين انه على الرغم مما بذل ، في المانية ، من جهدٍ متأخر للتمكين لنفسه بمناصرة المدن ، ظل ضعيفاً الى درجة يبدو معها وكأن الادواق dukes العظام ورؤساء الاساقفة — وكانوا سادة البلاد الحقيقيين — قد تسامحوا في بقائه تسامحاً .

ملوك اسبانية وفرنسة وانكلترة بمعاونة المدن منّ كما لهم

أما الملكية الاقطاعية في اسبانية وفرنسة وانكلترة ، فقد اتخذت خلال هذا العصر نفسه ، عصر النهضة ، سبيلا معاكساً وازدادت بسطةً وقوةً يوماً بعد يوم . لم يكن الملك في هذه البلاد ، لأسباب تتعلق بالتاريخ الوسيط ، عُرضةً لتلك الاحوال التي استنفدت حيوية الامبراطور الروماني المقدس . وبهذه الحصانة استطاع أن يُفيد ابعد ما تكون الافادة من نشوء العنصر المدينيّ القويّ المناهض للنبلاء والمَعْنيّ ، في نشاط وفعالية ، بمضاعفة ثروة البلاد . فكان اذا احتاج الى بعض المال ، وكثيراً ما كان يحتاج

سببٍ من محاولة النبلاء الحاسدين إفقاره على الدوام ، التمسه عند اهل المال ، وهم رعاياه المدينيون ، اصحاب العريكة اللينة ، بعد ان وجد هذه الطريق اسهل السبل واقربها . واذْ كان هؤلاء يقتضونه المثوبة على خدماتهم له ، فقد نالوها في شكل عهود بلدية منحتهم سلطات اوسع ، من ناحية ، وامتيازات دستورية أعطتهم حق التمثيل في مجلس المملكة الاقطاعي ، من ناحية ثانية . وكان هذا المجلس الاقطاعي ، او البرلمان ، مؤلفاً في الاصل من الاكليروس والنبلاء ، حتى إذا جمع ممثلو المدن الى ممثلي الاكليروس والنبلاء ، الذين كانوا يؤلفون ، حسب القانون الاقطاعي ، الطبقة الاولى والطبقة الثانية على التعاقب اتخذ هؤلاء المدينيون صفة الطبقة الثالثة واسمها . ولم يتم لمدن الدول الاقطاعية الثلاث التي ندرس ، هذا التقدم في الوضع السياسي إلا في عهد النهضة بصورة خاصة .

العاطفة القومية تفضي الى تأييد الملك

ولم يمض غير قليل حتى اضيفت الى روابط النظام المالي والدستوري القائمة بين المدينيين وملكهم رابطةٌ عاطفيةٌ قوية هي العاطفة القومية . وعلى الرغم من أن العصر الوسيط لم يخل من النزعة القومية بالكلية فانها لم تصبح عاملاً سياسياً فعالا إلا عصر النهضة ، لتنمو من ذلك الحين باطراد ، كلحنٍ يتفتح شيئاً بعد شيء في مقطوعة من مقطوعات

الاوركسترا الموسيقية ، حتى تبلغ أوجها الفاذر في القرن التاسع عشر . والواقع ان القومية شعورٌ يقوم على وحدة اللغة والعادات ، وهي تتصل تاريخياً بالنظام الاجتماعي الجديد الذي دشنته المدن . وإذْ كانت القومية كامنة وغير ذات شأنٍ في عصر الاقطاعية غير المنازَعة ، فقد برزت اكثر ما يكون عصرَ النهضة ، عندما كانت الافكار التي تدين بها الطبقة المدينية ومصالحها الجماعية تتعرض لهجوم يشنه عليها عدوّ غريب . وهكذا نشأت القومية الاسبانية كرجع (رد فعلٍ) لاستيلاء المسلمين على البلاد في القرن الثامن ، ثم قويت واشتدت خلال الصراع الطويل ضدّ المحتل الغريب . كذلك كانت القومية الفرنسية ، على يشهد اسم جان دارك أبلغ ما تكون الشهادة ، وليدة الغزو الانكليزي وحرب المائة السنة . زد على هذا ان الانكليز حققوا وعيهم القومي الخاص اكثر ما حققوه ، في الصراع نفسه . ويجب ان نحترس من المبالغة في قدر الحماسة القومية الجديدة التي عرفتها الشعوب الغربية لان الشعور المتناغم المنتظم لجميع طبقات الشعب لم يكن له وجود ، ما دام النبلاء يتجافون عن دهماء الناس ، ويحسبون انفسهم من جبلةٍ خاصة تفوق جبلة العوام فواقاً لا نهاية له . وأياً ما كان ، فلا سبيل الى إنكار هذه الحقيقة ، وهي ان المدن التي لم يعمرها في طور نشوئها الاول غير نوعٍ من الوطنية المحلية ، الضيقة جداً ، أصبحت بتعاقب الأيام نصيرة العاطفة القومية الاكثر شمولاً ،

وأنها أذاعت في الناس ، من اهل اللسان الواحد ، حبا للوطن اكثر سماحةً وكرماً . ولكنْ لما كان الملكُ هو رأس البلاد ، بوصفه الرجل الذي تجسّدت في شخصه معاني الوطن في اعين الناس ، فقد لزم عن ذلك ان يؤول كل انقادٍ في العاطفة الوطنية الى مصلحته .

نمو القوة الملكية ينطوي على صراع مع الكنيسة ايضاً

وهكذا افضت مجموعة من الاحداث والاحوال المتصلة بالمدن والحضارة الجديدة الى نصرة الملك في صراعه مع النبلاء . ولكن يجب ان يضاف الى النبلاء ، كأعداء بارزين للسلطة الملكية ، رجالُ الاكليروس الذين تمتّت لهم في العصر الوسيط جمهرة من الحقوق والحصانات انتهت بهم في مجموعها الى استقلالٍ حقيقيّ عن الدولة . حتى اذا ذكرنا ، فوق ذلك ، ان البابا ذهب في اوج القرون الوسطى الى حدّ التصريح بان الملوك إنما يحكمون دولهم كأقطاعاتٍ بابوية ، بنعمةٍ منه ، كان علينا ان نقرّ بان الملك قد واجه في العصر الوسيط حالةً صعبة . وهكذا تحتم على الملك ، اذا ما اراد ان يصبح في يومٍ الرئيس الفعّال لشعبٍ موحّد ، ان يحدّ من دعوى الاكليروس العريضة وامتيازاتهم كما قد حدّ من دعوى النبلاء وامتيازاتهم . والحق ان الطريقة المعقولة الوحيدة لانشاء امةٍ متحدة كانت إخضاع الطبقات جميعها لقانون عام يتمثل في الملك . ومن هنا لزم عن حركة التوحيد القومية ،

في حيثما نشأت ، صراعٌ مع الكنيسة لا يقل قسوة ومنطقية عن الصراع مع النبلاء .

التدابير التي اصطنعها الملك للتمكين لسلطانه

كان من همّ الملك في عصر النهضة ان يوسع المملكة القائمة على محورٍ منه ، ما استطاع الى ذلك سبيلاً . وليس من ريب في ان هذا التوسع كان جوهر البرنامج الملكي الذي تساوت في السعي لتحقيقه اسبانية وفرنسة وانكلترة جميعاً . وعلى الرغم من ان تطبيقه اختلف اختلافاً بيناً في كلٍّ من هذه البلدان فمن الملحوظ ان النتائج قد تلاقت ، الى حدٍّ بعيد ، على صعيدٍ واحد . لقد استطاع الملك من غير ان يزعج ، ضرورةً ، محاكم العدل العديدة الموروثة عن النظام الاقطاعي ان يمكّن لمركزه كرئيس لنظام العدل القومي ، وكمحكمةٍ عُليا يفزع اليها المتقاضون . كذلك ضاعف عددَ الموظفين المكلفين رعايةَ المصالح الملكية في الاقاليم ، منشئاً بهذا إدارة ملكية . ثم إنه زاد دخله بالاعانات التي كانت المدن تقدّمها اليه ، والتي عُني بان يجعلها ثابتةً ومطردة ليضع بما قد تم له من الوسائل المتعاظمة الاساسَ لقوة مسلحة دائمة ، غير معتمدة إلا عليه وحده . والحق ان صفة المحاولة كانت أغلب على هذه التدابير مما تدلّ عليه الأحكام الآنف ذكرها ، الذاهبة في التحديد الى مدىً بعيد . ففي احوالٍ كثيرة ، كالتي قامت في انكلترة مثلاً ، إبان حرب الوردتين ، بدت

الملكية ، وكأنها على وشك أن تسقط في مهلكة . ولكن النزعات التي رسمنا ههنا خطوطها الكبرى تابعت عملها من وراء حجاب لتخلُص الى إخراج تلـــك الظاهرة السياسية الجديدة ، اعني الملكية القوية .

اسبانية وفرنسة وانكلترة تصبح ملكيات قوية

وقد نتج عن هذا التطور السياسي ان برزت اسبانيـة وفرنسة وانكلترة للعيان ، فجرَ عهـد الاصلاح ، في ثوبٍ من الوحدة والبأس جديد . ومع ان الانعتاق من الاغلال الاقطاعية اقتضى هذه الدول الناشئة زماناً طويلًا فيمكن القول انهـا اضحت حوالى سنة ١٥٠٠ مجهزةً تجهيزاً حسناً بادارة مركزية حديثة مكنتها من ان تصطنع سلطةً لم تكن لتقوم في خيالها ، في تاريخها الأول .

كلمة اخيرة

إن الزوايا الثماني التي حاولنـا ان نتعرف منها الى عصر النهضة تبدو للقاريء سُبلًا متعددات سلكها الرجل الاوروبي ابتغاء الوصول الى ميادين جديدة . ولكنا اذا ذكرنا ان هذا الرجل كان يقيم بناء حضارة وُضعت قواعدها في العصر الوسيط وجدنا مناحي نشاطه المتعددة ، في العصر الجديد ، تلتقي في وحدة رائعة . ذلك بان النهضة تفيد ، حين ننظر اليها هذا النظر العضوي ، انعتاقاً من الطفولة ، بقيودها التي

تعلو على العد والاحصاء . ومن المحقق انه ليس خيالاً خالصاً ان نرى في إنسان العصر الوسيط طفلا حبياً يؤثر القعود في المنازل ملتزماً موقده المألوف وعازفاً عن ان يرى الى ما وراء حدود بيته وابرشيته . يضف الى ذلك ان الكنيسة ، التي قادته باليد كما تقود الأم ولدها ، كانت ان يقلل من احتفاله بدنيا الغموم هذه ، وان يكتحل عينيه برؤى الحياة التي ستأتي . ومن هنا تلون العصر الوسيط بالوان من الاستسلام وقهر النفس . فالتمس الناس بالمئات والالوف العزلة في حجرة الدير متبرئين من الحياة قبل نهايتها الطبيعية . ومع ذلك فقد دب في نفوس الالوف وعشرات الالوف الآخرين روحٌ جديد واومضت إشراقةٌ لم يكن في الامكان إطفاؤها او إنكارها . حتى اذا بلغ الطفل اشده في الموعد الحق دخلت حياة اوروبة الغربية في طور اسمى جديد . ههنا تكمن اهمية النهضة ، وهذا هو السبب الذي يجعل تلك المظاهر الثانية التي نظرنا في الحركة على ضوئها تتكشف — بالاضافة الى التحلل من القيود الذي يكون في كثير من الاحيان عابثاً ماجناً — عن اختبار جريء لفرص جديدة . لقد اكدت النهضة ، في نجاح بالغ ، على ان ميزة الحضارة الاوروبية الخاصة سوف تكون التجربة وحب المخاطر الى درجة تعدو تلك التي كانت لايما حضارة حدثتنا عنها صفحات التاريخ . واعلنت ان الحضارة الاوروبية ، سواء اكان ذلك لصلاحها ام لطلاحها ، لن تفرَغ تحت تأثير من سلطان

الكنيسة في قالب ثابت محتوم ، بل ستَفْرِضُ على الرجل الاوروبي ، بجمعها ما بين الفضول وروح المغامرة ، واجبَ تجديد الذات تجديداً لا ينقضي .

فهرست

صفحة

١ . المذهب الجديد في كتابة التاريخ ٣ — ١١

المذهب التقليدي في التاريخ يعنى بالسياسة ٣ ـ الحركة العصرية تحطم حواجز المذهب التقليدى ٤ ـ القرن العشرون يشهد فجر المذهب الجديد في التاريخ ٥ ـ « التاريخ التركيبي » غير الناضج ومحاولة هـ . ج . ويلز ٧ ـ « التاريخ الجديد » سيكون تاريخاً للحضارة ٨ ـ هـذا الكتاب يعنى بالحضارة الأوروبية ٩ .

٢ . حضارة اوروبة في العصر الوسيط ١٢ — ٤١

تحديد العصر الوسيط وعصر النهضة زمانياً ١٣ ـ في العصر الوسيط نشأت الشعوب الاوروبية الكبرى ١٤ .

« أ » نظام الاقطاع

نظام الاقطاع مجموعة من المؤسسات البدائية ١٥ ـ العصر الوسيط نتيجة لاختلاق حضارة المدن القديمة ١٧ .

« ب » نهضة المدينة

حياة المدينة تعود من جديد حوالى سنة ١٠٠٠ ب . م ١٨ ـ تقدم

المدن السريع من النواحي المادية والسياسية والثقافية ١٨ ـ العنصر الجديد يرفع الحضارة الوسيطة الى أوجها ١٩ ـ المدينة تروج للحكم الذاتي ومن ثم للملكية المطلقة ٢٠ ـ المدن تمهد السبيل لنظرة دينية وفلسفية جديدة في الحياة ٢١ ـ العصر الوسيط محاولة لأقامة مجتمع مسيحي تسيطر عليه كنيسة مطلقة ٢٢ .

« ج » الكنيسة

نشوء النصرانية والكنيسة ٢٣ ـ تنصر البرابرة وتأسيس كنيستين مسيحيتين ٢٤ ـ الكنيسة هي السبيل الوحيد للخلاص ٢٥ ـ اسرار الدين المقدسة هي روح الكنيسة ٢٦ ـ أسرار الدين السبعة ٢٧ ـ حكومة الكنيسة وادارتها ٢٩ ـ الفرق الرهبانية تعبر عن روح الورع في العصر الوسيط ٣٠ ـ الرهبان المتسولون ٣١ ـ تنازع السلطات بين البابا والاساقفة ٣٢ ـ الاكليروس يؤلفون الطبقة الاولى في المجتمع الوسيط ٣٣ ـ الكنيسة تعمل كدولة مستقلة ٣٣ ـ الكنيسة تجبي العشور وتسيطر على التعليم ٣٤ ـ الكنيسة تدعي المساواة بالدولة ثم السمو عليها ٣٥ ـ رجال الدين يسيئون استعمال سلطاتهم ٣٧ ـ نقد العقيدة والنظام يعتبر بدعة ٣٨ ـ العصر الوسيط يشهد ظهور عدد من البدع الفردية والجماعية ٣٩ ـ فكرات وقوى جديدة تؤذن بعصر جديد ٤٠ .

٣ . حضارة اوروبة في عصر النهضة ٤٢ـ١٢٢

« أ » تطور التجارة والصناعة

المدن تنشأ استجابة لحاجات انسانية جديدة ٤٣ ـ تفوق المدن الايطالية ٤٤ ـ اهمية موقع ايطالية على المتوسط واهمية قربها من الشرق بخاصة ٤٥ ـ الايطاليون يصبحون وسطاء طبيعيين بين الشرق والغرب ٤٧ ـ التقدم الاجتماعي والقانوني والتقني الذي حققته التجارة ٤٨ ـ التجارة تعزز الصناعة وكلتاهما تقبل نظام النقابات ٤٩ ـ مناطق المدن الكبرى في ايطالية وفرنسة

والفلاندر ٥١ ـ المدن الألمانية تنتظم في المحالفة الهنسية ٥٣ .

« ب » احياء العلوم

خبرات جديدة تبعث على نشوء فكرات جديدة ٥٤ ـ الكنيسة الوسيطة تنادي بالتأمل الروحي هدفاً أسمى لها ٥٤ ـ نشاط المدينين الدنيوي يتعارض والاتجاه الأكليركي العام ٥٥ ـ المدرسة الوسيطة ونظام الجامعات ٥٦ ـ الحركة الفكرية الوسيطة تستهدف التوفيق بين الايمان والعقل ٥٦ ـ القديس فرنسيس يمثل شعوراً جديداً نحو الحياة والطبيعة ٥٨ ـ بترارك نصير الثقافة الجديدة الأول ٥٩ ـ بترارك ينصر « لانسانية » التراث الكلاسيكي ٦١ ـ بترارك يفتتح عهداً جديداً في الدراسات الكلاسيكية ٦٢ ـ استباحة كنوز الثقافة اليونانية واحياء وجهة النظر الكلاسيكية ٦٣ ـ الثقافة الجديدة تفتن كبار رجال الكنيسة وتنتشر بين الطبقات جميعاً ٦٤ ـ انتشار المواطف الوثنية ٦٥ ـ الخطر على الكنيسة من النزعة الوثنية عند كبار رجال الكنيسة الايطاليين ٦٦

« ج » الأدب والفنون الجميلة

النهضة تساعد على نشوء الآداب القومية ٦٦ ـ الفنون الجميلة في العصر الوسيط تبدع الطراز القوطي ٦٨ ـ طراز النهضة يسود من ١٤٠٠ ـ ١٦٠٠م ٧٠ ـ التعريف بطراز النهضة ٧٠ ـ فن العمارة : برونلسكو وميكال آنجلو ٧٢ ـ تكاثر القصور الخاصة والدارات الريفية ٧٤ ـ فن النحت : دوناتلو وميكال آنجلو ٧٥ ـ التصوير فن النهضة الممتاز ٧٦ ـ التصوير الفلورنسي من ماساشيو الى بوتيشيلي ٧٧ ـ ميكال آنجلو وليوناردو دافنشي ٧٨ ـ الفريسكو والتصوير الزيتي ٧٨ ـ رفائيل ٧٩ ـ التصوير البندقي: تيتيان ٨٠

« د » العلم الطبيعي والاختراع

العلم الوسيط لا يعدو التنجيم والكيمياء القديمة ٨١ ـ التقدم البطيء في

الملاحظة العلمية : الطب ٨٢ ـ التقدم الحثيث في حقل الجغرافية ٨٤ ـ عـلم الفلك الجديد : كوبرنيكوس ٨٥ ـ فلك كوبرنيكوس يحرك راكد العلم ٨٦ ـ العصر الوسيط ليس عاطلا من الاختراع ٨٧ ـ البارود يقضي على الميزة العسكرية التي كان النبلاء يتمتعون بها ٨٨ ـ الطباعة تنطوي على سلسلة من المخترعات ٨٩ ـ الثورة العارمة التي احدثتها الطباعة ٩١

« ك » النزعة الفردية

نظام الطبقات الصارم في العصر الوسيط ٩٣ ـ المذهب الفردي ينجب كوكبة من الشخصيات اللامعة ٩٣ ـ النزعة الفردية تغذو نظاماً أخلاقياً خاصاً ٩٥ ـ عناصر النزعة الفردية الرئيسية ٩٦

« ر » رحلات الاستكشاف والاستعمار الاوروبي

رحلات الاستكشاف ليست حدثاً مستقلا ٩٦ ـ البرتغال تدشن رحلات الاستكشاف ٩٧ ـ الاكتشافات البرتغالية ٩٨ ـ كريستوفر كولومبس يبحر الى الهند غرباً ٩٩ ـ التباس الأمر على كولومبس في ما اكتشف ١٠٠ ـ الاستكشاف يصبح شهوة ١٠٢ ـ اوروبة تصطنع سياستين مختلفتين في آسية والاميركيتين ١٠٣ ـ البرتغال واسبانية تحاولان احتكار الاراضي الجديدة ١٠٤ ـ مناطق النفوذ الاستعمارية البرتغالية والاسبانية ١٠٥ ـ الكاثرة تتجه ببطء شطر الساحل الاميركي ١٠٦ ـ فرنسة تغنم كندا ولويزيانا ١٠٧ ـ ألمانية وايطالية لا تشاركان في الحركة الاستعمارية ١٠٨

« ر » نشوء الرأسمالية

الاقتصاد الوسيط اقتصاد مديني وحدته النقابة ١٠٨ ـ التاجر المغامر ينفرد بالتجارة الخارجية ١٠٩ ـ شركات التجار ونشوء المصارف ١١٠ ـ الرأسمالية تقضي على نظام النقابة الاقتصادي ١١١ ـ نشوء المجتمع الرأسمالي ١١٢ .

« ع » الملكية القوية

التحالف السياسي بين المدن والملك ١١٣ ـ انحطاط قوة الملك في ايطالية والمانية ١١٤ ـ ملوك اسبانية وفرنسة وانكلترة يجعلون المدن متكأ لهم ١١٥ ـ العاطفة القومية تفضي الى تأييد الملك ١١٦ ـ نمو القوة الملكية ينطوي على صراع مع الكنيسة ايضاً ١١٨ ـ التدابير التي اصطنعها الملك للتمكين لسلطانه ١١٩ ـ اسبانية وفرنسة وانكلترة تصبح ملكيات قوية ١٢٠ ـ كلمة اخيرة ١٢٠

٥٢/٦/١٥٩

مطابع دار الكشاف - بيروت